لنا عبد الرحمن

تَلامُس

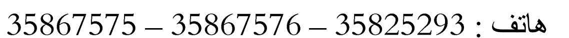
رواية

الكتاب: تلامس (رواية)
الكاتب: لنا عبد الرحمن
الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية


هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

لنا، عبد الرحنن
تلامس / لنا عبد الرحمن
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
.. ص، .. سم.
الترقيم الدولى: **4 – 447 – 446– 977– 978**
أ – العنوان رقم الإيداع : **13277 / 2017**

تلامس





المجنونة

"لا يمكنك إيجاد الطمأنينة بتجنب الحياة"

فيرجينا وولف

من فيلم الساعات

أكثر ما كان يخفيني، أن أصير مثلها.

أن تكون نهايتي مثل نهايتها.

كوابيسي عنها لا تنتهي، ثم الأشباح .. الأشباح التي تأتي لـــيلا لتهز سريري وتمضي، تتركني أحدق في فراغ غرفة ملبدة بالضباب ولون رمادي كثيف يشبه البخار المتصاعد من قدر هائل الحجـــم، وخيـــوط لا مرئية تتمازج ألوانها بين البترولي،الأسود، والكحلي القاتم، ألوان تشعرني بالجفاف الشديد في حلقي، كما لو أنها وجدت في هذا الكون لإفزاعـــي فقط.

استيقظ في الليل مرعوبة بسبب كابوس يتكرر.

أشاهد نفسي نزيلة مستشفى المجانين، "دار العجزة" أو "المأوى"، أكثر الأسماء التي تسبب لي الهلع.

دراستي "علم النفس" لم تحررني من هذه "الفوبيا" المرضية، ظننت أني سأتخلص من كوابيسي، ومن ذكرياتي، سيصير ترددي على "المـــأوى" أمراً عادياً، أقوم به كلما طلب مني القيام ببحث ما، لكن الأمور لم تسر

على هذا الشكل، وظللت أصاب بالرعب كلما صـــعدت إلى الســـيارة وقلت للسائق:

"المدينة الرياضية، نزلة مستشفى العجزة".

منذ عامين صرت أذهب لزيارتها وحدي.

لم يبق سوى أنا وهي، تدريجيا ضاقت الدائرة علي وعليها بعـــد موتهما.

جدتي كانت تقول أنني أشبهها، أحدق في وجهها بخوف وصمت كلما حكت عن جمالها حين كانت صبية، تنظر في وجهي قائلة:

"ايه شو بك، عمتك هيدي كانت قمر بصباها، كانـــت بتشـــبه مريم فخر الدين، أنت طالعة بتشبهيها ، مش المتل بيقول: "خذوا البنات من صدور العمات".

بماذا أشبهها أيضا؟

هل ورثت عنها ذات الشيطان؟

الشيطان الذي يلهب لي جسدي كلما أيقظني ليلاً.

أبلع ريقي وأصاب أكثر بالخوف، هل ستكون نهـــايتي مثلـــها، "مجنونة" لا يزورها أحد؟

هي كانت أجمل مني بكثير، أنفي الطويل الذي ورثته عن أمـــي، وبشرتي المائلة إلى الأصفر لا يقارنان بلونها القرنفلي، بعينيها العسليتين ، وملامحها الدقيقة.

لو أنني تزوجت، لو لم انجرف وراء شغف علاقتي مع "محمـــدو" وأفسخ خطوبتي من كامل، ربما كنت الآن أكثر هدوءاً وأقل وحدة.

هي أيضا لم تكن مجنونة منذ البداية، ولم تكن وحيدة، كل الأشياء تصاعدت رويداً رويداً حتى وصلت لهذه النتيجة.

لا أعرف كيف بدأت تمرض، وكيف جنت.

لا أحد من العائلة أو الأقارب يتفق على بداية مرضها، وكيف صارت مجنونة.

حادثة مرضها يتكتم عليها الجميع، وكنت أسمعها بصيغ مختلفة من كل شخص في العائلة.

* * *

أبعد ما أذكره أنني منذ بداية تشكل وعيي الأول وأنا أذهب لزيارتها مع جدتي في "مأوى العجزة"، كلما عاودتها نوبة عصبية ونقلتها جدتي برفقة أبي إلى المستشفى لتظل فيه شهراً أو أكثر قبل عودتها إلى البيت.

"مأوى العجزة" الذي يتكون من عدة طوابق، وينقسم ما بين مصح للأمراض العقلية للنساء والرجال، وبين نزل لإيواء المسنين. إنه المكان الذي وضعت قدميّ الصغيرتين فيه أول مرة وأنا طفلة في الخامسة.

ما أن نصعد أنا وجدتي إلى الطابق الثاني المخصص للنساء اللواتي يعانين من مرض عقلي أو خلل نفسي ، حتى تبدأ رفيقات عمتي المريضات بمحاولة مداعبتي، إحداهن كان اسمها "أسماء"، كانت تبكي كلما رأتني، تحكي عمتي لجدتي حكايتها على مسمعي، كيف حرمها زوجها من أبنائها الثلاثة ووضعها في المستشفى رغم أنها طبيعية تماماً،

لكن أسماء لم تكن تبدو عادية أبدا. أما "سعاد" فقد توقف نموها الـــذهني عند التاسعة من عمرها. الأجمل بينهن "هلا"، كانت تعطيني الشـــوكولا والبنبون، عمتي تقول بأنها "تقع بالنقطة" حينها لم أكن أفهم مجاز العبـــارة بأنها تقصد نوعاً من الصرع ينتابها فجأة بلا أي مقدمات، لكن "رويـــدا" التي تنحدر من عائلة كبيرة في "بعلبك" كانت مدمنة على "الكوكايين". حكت عمتي لي بأنها بدأت بتعاطي الحشيشة منذ السادسة عشـــر مـــن عمرها، وبعد زواجها من ابن عمها الذي يتاجر بالحشيش أيضاً أدمنـــت على الكوكايين بعدما صار يعقد صفقات مع تجـــار يقومـــون بتخـــزين الكوكايين عنده قبل نقله براً إلى بلدان عربية مجاورة، خاصة أيام الحرب عندما كان لبنان من الدول المصدرة للمخدرات.

هؤلاء كن رفيقات عمتي في مرضها، رسخن في ذاكـــرتي، رغـــم عبوري من الطفولة الى المراهقة والشباب، إلا أنني مازلت أذكر ملامـــح وجوههن المريضة وأجسادهن المهدودة من جلسات الكهرباء.

* * *

الأسرار مرايا مكسرة، مرعبة، تعكس حقائق مستترة،

كل شخص يراها مختلفة حسب زاوية رؤيته.

الأسرار..

سلطعونات صغيرة، لونها أحمر يبهت مع الوقت ويرخي قبضـــته، لكن لا يمكنك الاقتراب منها من دون أن تحس باللزوجة.

تتضاءل الأسرار مع الزمن وتزوي حسب أهميتها في حياتنا وحسب الأشخاص الذين ظلوا أحياءً ليكشفوا لنا حقيقتها، وغالباً ما تكون الحقيقة التي يحبون هم رؤيتها، لذا تظل الأسرار أسراراً.

في عائلة أبي هناك سر عمتي المجنونة، وفي عائلة أمي سر زوجة خالي المنتحرة، وسر خالتي "وفاء" التي وجدت زوجها مقتولا أمام مدخل العمارة التي سكنا فيها في "أبو ظبي". قتل بعد زواجهما بخمسة أعوام وإنجابهما بنتين، تفرغت لتربيتهما بعد موت زوجها.

غامضة معرفة الحكايات التي عتم عليها الوقت، وابتلعتها سلطعونات الشك والحرص على إخفاء الحقيقة. أجمع نتف الحكايات من أمي وخالاتي، من جدتي قبل موتها، وعمتي في لحظات صحوتها، ومن ابن عمي "حسان" الذي استدرجه ليحكي لي ما سمعه من والديه، من أي قريب أو صديق قديم للعائلة، من أي أحد يمكنه ري شغفي عبر فتح خزان ذاكرته لكشف معلومة صغيرة لا أعرفها.

منذ الخامسة من عمري، وحين انفصلت أمي عن أبي وسافرت الى الأمارات، وأنا أعيش مع جدتي التي تحكي أن عمتي مرضت بعد موت خطيبها خلال الاجتياح الإسرائيلي لبيروت، تروي جدتي القصة قائلة:

"مرضت بعد ما شافت دمه بيتصفى قدام عيونها، الله يرحمه كان شاب متل الأسد".

هكذا كانت جدتي تؤكد أن مرض عمتي لم يكن قبل هذا الحدث، وأن صدمة فقدها خطيبها قادها للجنون.

تقسم أمي أنها منذ معرفتها بأبي وزواجها به وعمتي مريضة، حالات جنونها تعود لسنوات الطفولة كما أخبرها أبي، وتؤكد لي أن خطيب عمتي مات بسببها أيضاً.

حكت لي ذات مرة قائلة:

"مات من اللي شافه منها، ومن اللي كانت تعمله فيه، عمتك هيدي كان لازم يحطوها بالمستشفى من زمان، لشو عملوا المستشفيات اذا مش لهيدول الناس، أول ما انخطبنا أنا وبيك، تعرفت بخطبتنا على منير رفيق خالك الله يرحمه، ومنير حبها كتير وخطبها، والله يسامحها ستك وبيك ما خبروا الحقيقة عن مرضها وصار يكتشف الأشيا شوي شوي، حالات جنونها ما بتتخبى على حدا، لغاية مرة بالليل كان منير ببيت ستك وكان أيامها الدنيا حرب وضرب، عمتك طلعت من أوضتها لابسة تنورة قصيرة وبلوزة من دون بطن، ومكياج طالسة وجهها فيه طلس، وبتصير تقلد الأرتيستات قدام منير، هو جن جنونه، وصار يسأل ستك شو القصة، وستك تجيب كلمة من الشرق وكلمة من الغرب، سحب حاله وطلع من البيت، وما وصل لأول الشارع الا إجت قذيفة على سيارته وصار مية شقفة".

قريبتنا الممرضة هنادي التي تعمل في "دار العجزة" كانت تقول إن عمتي ولدت وهي تحمل المرض بين خلاياها، وظهر أول مرة وهي في الخامسة عشر من عمرها، لأن أمها وأبيها أولاد عم، همس لي أن هذا المرض منتشر في عائلتنا وأنه يصيب النساء فقط، وأن ابنة عم لأبي تعيش في سوريا ماتت من المرض ذاته منذ عشرين عاماً.

جارتنا "أم فؤاد" تقول إن عمتي ممسوسة منذ صارت في العشرين، وإن الجني الذي تلبسها لا يتركها تهنأ بحياتها، وإلا لماذا تمر أوقات تبدو فيها طبيعية تماماً، ولماذا يتغير صوتها ويخشن عندما تأتيها الحالة. تقول:

"كانت بتتغاوى كتير قدام المراية، أحياناً بتكون من غير تياب هيك قال الشيخ لما رحنا عنده أنا وستك الله يرحمها.. قال البنت صغيرة وحلوة وبيضا وما بيسوى توقف عريانة قدام المراية، عشقها جني وتلبسها وما قبل يطلع منها.. ما كان جني هين، كان من ملوك الجن.. يا مسكينة ستك شو لفت ودارت عند الشيوخ، وشو دفعت مصاري وما حدا قدر يعمل معه شي".

أما أم سمير قريبة جدتي فكانت تقول: كله من ربنا، المرض قضا وقدر.. اختبار من عند الله، ربنا بده يختبر ستك وجدك اذا رح يتحملوا المصيبة هيدي.. يا مسكينة ستك، مات جدك وتركلها الهم كله".

كلما سمعت مصادر الحكاية المختلفة أصبت بهلع أكبر وتخيلت نهايتي، ماذا لو كان المرض وراثياً حقاً وسيظهر علي بعد حين؟

سأحاول النوم من جديد، لن أفكر بحالة عمتي التي تدهورت أكثر فأكثر.

سأحاول أن لا أفكر بأمي التي تلح علي لاستخراج جواز سفري.

* * *

تلح أمي علي منذ وصولها الى بيروت كي أسافر معها الى الإمارات، تقول لي:

"ما عاد إلك حدا ببيروت، شو قاعدة تعملي هون".

أنظر الى وجهها المتورم من حقنة "البوتكس" والى شفتها العليا المنفوخة بأثر الكولجين، أعرف أنها تأتي مرتين في العام للقيام بعمليات تصحيح وترميم لوجهها وجسدها.. تقول إنها تأتي لرؤيتي، ربما يكون كلامها صحيحاً لكنها تأتي أيضا للعودة "بنيو لوك" جديد.

أقول لأمي:

"مين رح يزور عمتي بالمستشفى لو أنا سافرت، مين رح يطلعها إجازة لما تكون منيحة"

ترفع يديها في وجهي، تضرب كفا بكف قائلة:

"شو هيدا.. ليك ملا حكي ..إنت رح تجنبيني، بدك تبقي هون علشان واحدة مجنونة".

تزعجني عبارات أمي، لا أستطيع مواجهتها. لم أقدر على القول لها إنني لا أستطيع التخلي عن عمتي، بعد وفاة جدتي، وموت أبي".

أحيانا في لحظات الغضب التي تمر بي أقول في سري أنه يستحيل على أمي إدراك عجزي عن هجر عمتي والتخلي عنها والاكتفاء بارسال النقود لها، وزيارتها كل عام عندما آتي في زيارة صيفية الى بيروت. أمي فعلت ذلك معي وأنا طفلة لذا لا يمكنها أن تتبنى نوعاً مختلفاً من المشاعر. ولا يمكنها أن تعي أن الدائرة ضاقت علي وعلى عمتي وبقينا وحدنا.

* * *

اليوم عيد ميلادي.

على هاتفي الخلوي خمسة اتصالات من أمي ورسالة صوتية تعايدني فيها، ومعاتبة لأنني لم أذهب الى الجبل لنحتفل معاً.

وجدت أيضاً على الهاتف معايدة من هاديا صورة قلب ينفتح وينقبض، وبين الحركتين تبرز رويداً رويداً عبارة "عيدك سعيد وعقبال المية سنة".

لا أحب التمنيات التقليدية بالعمر الطويل. إنها أمنيات غير لطيفة وباردة إلى حد كبير.

لا أحد يتمنى أن يعيش حتى يبلغ المائة عام، لا أحد يحب أن يبتلى بأمراض الشيخوخة ونكباتها، ورغم ذلك عند ذكرى الميلاد يقولون "عقبال المية". يا لها من عبارة متعبة حقاً.

في بريدي الالكتروني وجدت رسالة من هند فيها معايدة وتحليل لمواليد هذا اليوم الذي قالت عنه إنه يوم مميز فلكيا، أرسلت إليّ تحليل عالم الفلك الصيني"باخو".

كانت هناك أيضاً رسالة من محمدو، أرتعش قلبي وأنا أكبس الماوس، كان فيها عبارة واحدة

HAPPY BIRTH DAY NADA

تباغتني فرحة دافئة.

أهواء متباينة تحركت داخلي بعد قراءة رسالته،

تجاهلتها بصمت.

اليوم صار عمري 24 عاماً، مضى على تخرجي عامان، ومازلت عاطلة عن العمل، لم أجد الوظيفة المناسبة، كما لم أنجح في العمل

كمدرسة للأطفال في مدرسة ابتدائية، رفضت أيضا عرض وظيفة حكومية مملة في مكتب البريد، تبرع زميل أبي في مساعدتي للحصول عليها. كما أنه ليس لدي ولع يدفعني لإعداد رسالة ماجستير أعقبها بالدكتوراة لأصير أستاذة جامعية.

هاجس العمل كان يلاحقني باستمرار، والسؤال ذاته يتكرر في داخلي، "ماذا أريد أن أفعل بقية حياتي بما أنني لا أحب الروتين اليومي، وأكره التواجد في مكاتب مغلقة لأقوم بعمل مكرر، ماذا أريد أن أفعل إذن وأنا أُمضي نصف يومي على الأنترنت، أقرأ الصحف وأقوم بتجميع المواد عن الموضوعات التي تجذبني، أكتب بعض التفاصيل في مدونتي، أحكي عن السينما، والموسيقى، عن الأغنيات التي أحبها والأفلام التي أشاهدها، أحكي بعض ما لدي من قصص، أكتب أحلامي ووقائع يومي، أضع بعض خربشاتي. أحكي عن الرقص. الرقص الكثيف الذي أحبه، وأخجل من الحكي عنه، أكتب عن هوايتي في قراءة حياة المشاهير، ومعرفة أسرارهم .. إنها تفاصيل.. أشياء.. يراها الآخرون سخيفة، مضيعة للوقت، لكنها الأشياء التي تشكل قلب عالمي ونواته ورغم ذلك لا أبوح بها.

أحيانا أفكر أيضا في كتابة قصة محمدو كما حدثت.

ربما سأفعل ذلك في يوم من الأيام.

* * *

ارتديت بنطلون الرياضة القطني الازرق، وتي_ شيرت أبيض ، ونزلت الدرج الى أسفل المبنى،دخلت الى فرن "عبدو"، أوصيت على منقوشة جبنة، ثم اتجهت نحو المكتبة القريبة، اشتريت الجريدة، عبرت الشارع كي أعود الى الفرن، سيارة حمراء تعبر من جانبي بسرعة البرق، تترك خلفها غمامة عالية من الغبار أشبه بزوبعة مفاجئة، عامل الفرن لم ينته بعد، اقف بانتظار وجبتي المرتقبة، الوهج المنبعث من النار يتسرب إليّ، أحس ببداية نوبة حساسية الصدر، سأصعد الى البيت حالاً وآخذ الدواء، وأنا انظر للنيران المشتعلة في الفرن تذكرت حلم ليلة البارحة.

حلم سخيف جداً، أحس بالخجل حين يكون الحلم سخيفاً الى هذا الحد، ومضحكاً أيضاً.

كان هناك مؤتمر للفئران...الغريب أنني أخاف من الفئران جداً، لكنني رأيت جماعة كبيرة من الفئران بأحجام متفاوتة، فئران سمينة ومنتفخة، وأخرى نحيلة، فئران بشوارب رفيعة وطويلة، فئران من اللونين الأبيض والأسود، رأيتها مجتمعة في قاعة واسعة، كانت ترتدي ثياباً مثل ثياب البشر، وكانت تتكلم أيضاً، تتناقش في أمر ما، لحسن الحظ لا أذكره. لكنها فجأة تغادر القاعة الواسعة وتنتشر في الشارع.

الشوارع تغص بالفئران المتضخمة التي صارت أحجامها تقارب البشر، والناس خائفة تفر بهلع، كنت أراقب الفئران المنتشرة من الشرفة، أشاهد الذعر على وجوه الناس التي تهرب بعيداً، أقرر الهرب وما إن استدير بجسدي لأغادر الشرفة حتى أرى الفئران الكبيرة تملأ غرفتي

أيضاً، كانت رائحتها بشعة جداً وهي تقرض بجوع كل ما تصـــل إليـــه. رأيت أيضاً عمتي تجلس على الأرض في وسط الغرفـــة عاريـــة، تقهقـــه بصوت مخيف، الفئران تسير على جسدها، وهي لا تبالي.

شيئ مرعب أن أستمر في تذكر أحلامي وتدوينها حـــتى عنـــدما تغزوها الفئران أيضاً.

وضعت إبريق الماء على النار، أضفت الى الكوب الزجاجي ظرفـــاً من الشاي ثم الماء المغلي ما إن لامس الماء الساخن الشاي حتى ســـحبته بسرعة قبل أن يصير لونه أحمر داكناً. هاديا تسخر من الشـــاي الـــذي أشربه، تصفه بأنه "ماء ساخن" فقط. دخلت الى غرفة الجلوس أمســـك الصينية الصغيرة التي تضم المنقوشة وكوب الشاي، لم أكن أسير بســـرعة لكن قدمي دخلت في طرف السجادة، فسقطت الصـــينية علـــى الأرض وتناثرت بقع الشاي مع الزجاج المكسور والمنقوشة الساخنة.

الشاي الساخن الذي انسكب على الأرض أصاب يدي بحـــروق طفيفة لكنها مزعجة.

غمرني إحساس بالتشاؤم وأنا أكنس الأرض وأجمع ما تناثر من قطع الزجاج الصغيرة.

عدت إلى المطبخ، أحضرت قطعة ثلج وصرت أمررها على ظـــاهر يدي في الأماكن التي أصابتها الحروق. عاودني إحساس الجوع فتحـــت البراد أخذت علبة اللبنة وكيس الخبز، وضعت ملعقتين مـــن اللبنـــة في نصف رغيف وثلاث حبات من الزيتون، ثم سكبت البيبسي في كـــوب

زجاجي وعدت إلى غرفة الجلوس، مشيت بحذر خوفاً من أن تتكرر حادثة السقوط. أكلت ساندويش اللبنة ثم تناولت دواء حساسية الصدر.

بعد مرور نصف ساعة شعرت بتحسن، أمسكت (الريموت كنترول) في يدي لأقلب إلى إحدى القنوات التي تقدم الأفلام الأجنبية في عرض متواصل، كان هناك إعادة لفيلم: "**Beautiful Mind**".

الفيلم الذي يؤدي فيه راسل كرو دور عالم فيزياء يرى أشخاصاً لا يبصرهم أحد غيره.

أكثر اللقطات رعباً بدت لي حين وضع ابنه في حوض الاستحمام وكاد الطفل الذي لم يتجاوز عامه الأول أن يغرق، فيما البطل يبرر سلوكه أمام زوجته بأن صديقه اللامرئي يقف بجوار الطفل. تنتهي أحداث الفيلم حين ينال العالم جائزة نوبل، من دون أن يجزم هل الأرواح التي كان يراها حقيقة أم خرافة.

انتقلت إلى قناة أخرى، تعرض فيلماً جديداً اسمه "ويجا". وخلال الإعلان عنه ذكروا أنه عرض أول. الفيلم من بطولة فنانين شبان، هند صبري، وهاني سلامة، وشريف منير، ومنة شلبي، وأسماء أخرى لا أعرفها.

أندمج في متابعة أحداث الفيلم، ما إن أصل إلى حدث النهاية والقتل العنيف الذي يقوم به أحد الأبطال، حتى أحس أن المشهد مفتعل جداً، يخلو من الصدق.

* * *

اقترحت علي هاديا تقديم طلب للعمل في قناة فضائية تطلب معدي برامج وثائقية. يساورني الخوف من الفشل. لذا أتراجع عن كل خطـوة من هذا النوع فيها مواجهات جدية مع الحياة.

تغيرت هاديا كثيراً بعد عملها في أوتيل فخم في شارع "الحمرا"، لم أعرف كيف أصف هذا التغيير الذي صار يحكم سـلوكها، رغـم أنها صارت أكثر ثقة بنفسها، إلا أن نقمتها على حياتها صارت أكثر وضوحاً. ارتفعت نبرة السخرية في صوتها، وصارت تحكي باستمرار عن الفروقات بين "الناس اللي فوق.. والناس اللي تحت" التي ترى نفسها تنتمي إليهم. غالباً ما كنا نختلف أنا وهي بعد نقاش طويل بين ما يجب ومـا يحـدث، نقاش لا يؤدي إلى نتيجة سوى ابتعادنا عن بعضنا بعضا، أحـزنني هـذا الأمر كثيراً، لكنني كنت عاجزة تماماً عن الوصول معها لرؤية مشتركة، في بعض الأحيان أحس بتعاطف كبير نحوها،أجد لها الأعذار وأبرر كل ما تقوله وما تفعله، لكن فيما بعد أشعر بالحنق وأن كل ما قالتـه غـير مقنع.

قالت لي يومها: "صدقيني ندى هيدي فرصة دهبية إلك اذا مشـي الحال، أنا بالصدفة سمعت عميل نازل عنا عم يحكي مـع صـاحبه عـن البرامج الوثائقية وإنه قليل من الناس عنده موهبة فيها، قال إنـه القنـاة عاملة إعلان تطلب معدي برامج، فكرت إنه لازم تقدمي لأنه هلـق في وظائف شاغرة.. عنجد إنت فيكي تعملي أكتـر مـن موضـوع مميـز بيوافقولك عليه".

لا أحب كلمة "وظائف شاغرة"، تجعلني أحس أنني انضم إلى قطيع الفئران، وهم يلهثون خلف قطعة من الجبن، وفي النتيجة لا يحصل علـــى القطعة إلا فأر واحد لا يشترط أن يكون الفأر الأسرع، لكنـــه الأكثـــر حيلة.

كنت مقتنعة أيضاً أن الفرص غير عادلـــة، ولا يحكمهـــا عنصـــر الكفاءة فقط، هناك عوامل كثيرة أخرى من بينها الدقة في التعريف عـــن النفس، واستعراض المهارات بذكاء ولباقة، الواسطة أيضا تلعـــب دوراً مؤثراً.

لذا لم اتشجع في المحاولة لأن خروجي من ذاتي للكلام عنها شيئ لا أقوم به بسهولة، ولا أعرف بدقة كيف أعبر عنه، كما أنني لا أمتلك أية واسطة.

قمت نحو جهاز الكمبيوتر، كبست زر التشغيل، جلست انتظـــر إقلاع كمبيوتري في فضائه، ما إن أصبحت الشاشة زرقاء، حتى قـــررت أن أعمل بنصيحة هند في الدخول الى موقع عالم الفلك الصيني "بـــاخو"، وقراءة طالعي في يوم ميلادي الذي بدأ بنوبة الحساسية وكوب الشـــاي المكسور، والمنقوشة المرشوشة بالزجاج، ولسعات الشاي على يدي.

قرأت تحليل "باخو" ونبؤاته الغامضة، لكنني كنت أثق بنبؤات هند أكثر.

وثقت بها حين قالت لي إنني لن أتزوج "كامل". وحين تعرفت إلى "محمدو" قالت لي وهي تفتح ورق "التاروت": "واو.. في شغف، حب، جنون.. شي متل الانخطاف السريع".

لكنني حين سألتها ماذا سيحصل معي فيما بعد، والورق مفتوح أمامها على مساحة الطاولة، نظرت إليه نظرة غامضة ثم حركته بخفة لتجمعه في يدها قائلة: "إنها تحس بالتشويش، ولا تقدر على التركيز أبدا، استحلفتها كثيراً أن تخبرني عما رأته لكنها أنكرت بشدة رؤيتها لأي شيئ. خلال سنوات الجامعة، كانت هند تمارس علينا قدرتها على قراءة الطالع. كنا نستمتع باللعبة، وكلما أصابت نبوءاتها تصر أكثر على التوغل فيها.

مضت أربع ساعات وأنا منهمكة في الإنترنت، كنت أتصفح الكثير من المواقع، وأجري محادثتين عبر الماسنجر، إحداهما مع مانويلا صديقتي الأنترنتية التي تنحدر من أم لبنانية وأب إيطالي، وتنوي القدوم لزيارة لبنان لأول مرة، ومشاهدة مسرحية فيروز التي ستعرض الشهر القادم في مهرجانات بعلبك. المحادثة الأخرى كانت مع قريب هند، د.فواز الذي يقيم في كاليفورنيا، والذي وعدني بأن يساعدني في جمع خيوط أولى عن حياة الشاعرة اللبنانية "ناهية نصار"، تلك الشاعرة التي ضاع معظم ما كتبته، ولم أعرف بوجودها إلا صدفة حين ذهبت العام الماضي برفقة هند لزيارة عمتها في "اهدن"، يومها عرفت بوجود شاعرة عاشت في خمسينيات القرن الماضي وأنشأت صحيفة للمرأة، واستمر صدور

الصحيفة الأسبوعية لمدة عامين، لم أجد أي ذكر لصحيفة "ناهية نصار" في الكتب التي تتحدث عن تلك المرحلة، كما لم أعرف أحدا يذكر صحيفتها سوى بعض الأهالي في المنطقة، لكنهم لا يملكون إلا تاريخاً شفاهياً وصوراً غائمة بالأبيض والأسود "لناهية نصار"، وفي يدها نسخاً من مطبوعتها، وهي تحتفل باكتمال العام الأول على الصدور. تمكنت بصعوبة من إقناعهم بأخذ تلك الصور وإعادتها ثانية بعد نقلها إلى ملف على جهاز كمبيوتري.

في البداية كان الأمر مجرد رغبة كشف.. استجابة لشغف جمع حيوات أشخاص لا أعرفهم، لكن فيما بعد سارت الأمور بشكل مختلف حين صار كل خيط جديد يشدني أكثر وأكثر لقصة "ناهية نصار".

حكت لي عمة هند عن قريبهم المهاجر منذ ثلاثين عاماً، "د.فواز"، وعن علاقته مع أولاد "ناهية نصار" الذين يقيمون في كاليفورنيا أيضاً. أخذت منها عنوانه البريدي وكتبت إليه عن رغبتي في معرفة حكاية "ناهية نصار"، وكيف يمكنني التواصل مع أولادها أو أحد معارفها القدامى، كذبت عليه، قلت له إنني باحثة وأعد دراسة حول الشاعرات اللبنانيات في أوائل القرن الماضي، خشيت أن أصارحه بأن الأمر عندي مجرد شغف بالمعرفة، مجرد محاولة نبش للوصول إلى شيئ ما، ربما يكون مهماً، أو لا يكون. من يومها صرنا نتحدث من وقت لآخر، زودني بمعلومات عنها، أعطاني العنوان البريدي لابنتها الكبرى، وابنها، ووعدني بأن يمدني بنسخ من المطبوعة وبصور أخرى لتلك الشاعرة عند قدومه إلى لبنان هذا الصيف.

كنت أحس بفرح غامر كلما اكتشفت حقيقة غائبة. ناهية نصار إذن كانت امرأة حقيقية، شاعرة، وجدت وكتبت، ونشرت قصائدها، وأصدرت أول مطبوعة تعنى بشئون المرأة.

تحت قشرة الجوز الصلبة، تكون الثمرة المختبئة في تجاويف قشرة داخلية أخرى.. لكن حذار من تحطيم القشرة بقوة حينها ستتفتت الثمرة إلى أجزاء صغيرة لا يمكن جمعها من جديد ومعرفتها في شكلها المتكامل.

* * *

حين كتبت إلى ابنة "ناهية نصار" لم أحصل على رد سريع، تأخرت في الرد ما يزيد عن عشرة أيام، ثم وجدت في بريدي الإلكتروني رسالة مختصرة عبرت فيها عن امتنانها لمحاولتي البحث في حياة والدتها وما كتبته ونشرته، لكنها أوضحت أيضاً أنها لن تتمكن من مساعدتي كثيراً لأنها ملتزمة بساعات عمل طويلة، لا تترك لها الوقت لأية مشاغل أخرى، كما أن كل ما يمكنها أن تساعدني به موجود في بيتهم في لبنان، لأنه لم يكن من المعقول أن تصطحب معها إلى أميركا أعداد مجلة قديمة أصدرتها أمها في أوائل القرن الماضي، ثم في ختام الرسالة ذكرت أنها ستتواصل معي في حال قرارها بالقدوم الى لبنان.

شكرتها على تجاوبها معي.

كتبت لفواز من جديد، أخبرته بماحدث، طلب مني انتظار مجيئه في الصيف.

"ستحصلين على كل ما تريدين معرفته، لا داع للعجلة".

كتب لي فواز.

* * *

رن الجرس.

أصابعي متعرقة، دوار بسيط في مقدمة رأسي أحسست بـــه وأنـــا أسير نحو الباب، لا أعرف كم مضى من الوقت وأنـــا جائلـــة في عـــالم الأنترنت. نظرت من العين السحرية، ميزت هاديا برفقة أخيهـــا زيـــن، فتحت الباب بسرعة، أرتفع صوت هاديا:

"هابي بيرث داي حبي"، يدها تقبض على باقة الورد الجوري الأحمر الذي أحبه، "زين" يقف بجانبها وفي يده قالب حلوى صغير.

ناولني"زين" القالب وهو يرفع قبعة الشمس عن رأســـه ويـــنحني قليلا ويقول:

"جينا نحتفلك بعيدك.. عند العصر.. شفتي عيد ميلاد الساعة أربعة ونص".

جلست "هاديا" في الصالون بعد أن وضعت الورد في المزهرية، أما "زين" فقد فتح مغلف قالب الحلوى وجلس على مقربة من شقيقته، قال:

"يا جماعة أنا معي وقت ساعة بس وبدي روح على الشغل، جيبوا الصحون، وكاسات للعصير وتعوا لنغني وكل واحـــد يـــروح يشـــوف مصالحه بالدنيا".

غمرني إحساس بالاختناق عند حلقي، كنت أقاوم رغبـــة حـــادة بالبكاء. خرج صوتي ضعيفاً:

"بس انتوا تذكرتوني.. وجيتوا لعندي"

حولت "هاديا" الكلام الى دعابة قائلة:

"وشو نحنا ما منكفي.. مش عاجبينك"

قلت:

"انت بتعرفي إنه مش هيك قصدي"

"يالله يا بنات، خلينا ناكل الجاتوه، لأني رح اتأخر على شـــغلي". قال زين.

إنت مش قلت معك وقت ساعة .. لسه ما مرق ربـــع ســـاعة .. وبعدين شو أخبار شغلك هالايام عن مين الإعلانات" سألته.

" هيدي الأيام الإعلانات عن حفلات الصيف في نهر الفنون، وعن مهرجانات بعلبك، وشوي عن المونديال.. أيه ندى بالمناسبة أنت مـــين بتشجعي".

"ما بعرف" قلت له، ثم التفتت نحو هاديا، وســـألتها "انـــت مـــين بتشجعي هاديا".

ردت وهي تغمز لي بعينها:

"ايطاليا .. لأنه عندهن شباب حلوين"

قلت: "خلص أنا متلك رح شجع إيطاليا كمان".

ضحكت هاديا بصوت مرتفع وهـــي تقـــول "لا.. لا أنـــت لازم تشجعي فرنسا.. بيكفي إنه عندهن تيري هنري.

بدا على "زين" المتابعة وهو يسألني "بتحبي تيري هنري ندى"

"مين هنري هيدا.. ما بعرفه أصلاً" قلت.

علقت "هاديا" بخبث:"ندى بتشجع اللاعبين الأفارقة".

ابتسمت متجاهلة التعليـــق، وانســـحبت الى الـــداخل لأحضـــر الصحون.

ارتفع رنين هاتفي الخليوي، حين نظرت الى الشاشة وجدت اســـم هند.

بعد أن سلمت علي وعايدتني قالت: "شو رأيك تجي تتغدي معنا".

"لا ما بقدر اليوم، خليها ليوم تاني، هلق قاعدين أنا هاديا و زين..

"طيب سلميلي عليهن، ورح ننطرك بكرة، اوكي"

"اوكي.. باي"

– مين.. هند.

سألني زين وبدا وجهه جامداً.

– ايه هند، وبتسلم عليكن ..

شو أخبارها..؟ منيحة؟ بعدها هي وزياد سوا؟

ردت هاديا:

"ايه لشو كل هالاسئلة، خلص ما نسيت القصة لسه"

تمتم "زين":

ما في قصة أصلا .. بس عم بطمن على أخبارها.

قلت:

أخبارها منيحة، ماشي الحال هي وزياد بعدهن مع بعض، ويمكـــن يتزوجوا قريبا..

بدا انقباض واضح على وجه زين، قبل أن تعلق هاديا قائلة:

"يا خيي.. انتوا ما بيمشي حالكن مع بعض... لا أنت متلــها ولا هي متلك، أفكاركن مختلفة، لشوا الزعل، البنت كانت مستوعبة هالشي من الأساس وواجهتك فيه، يعني هي ما غلطت معك، لا خــدعتك ولا قالتلك منجرب إذا مشي الحال، من الأول قالتلك نحنا أصحاب وبــس، وهيدا شي ما بزعل".

عندما وصل الكلام عند هذه النقطة، وضع زين الطبق من يــده ثم وقف وهو يقول:

"طيب أنا اتأخرت صار لازم أمشي".

وضع قبعة الشمس على رأسه. كان طوله معتدلا لكنه بدا أطــول من العادة، مع القبعة واللحية التي يتركها طويلة قليلاً، رغم التناقض بين اللحية وبين القبعة و(التي-شيرت) البيضاء التي يرتديها للعمــل. كــان وجه زين ملوحاً باحمرار خفيف نتيجة تعرضه للشــمس، يبــدو أكثــر وضوحاً حين تكسو ملامحه احتقان مفاجئ.

- "هيئتك زعلت.. معقول تزعل بعيد ميلادي وكون أنا السبب". قلت له وأنا أحاول أن أستبقيه للجلوس معنا.

"لا والله ندى... تأخرت على الشغل، صار لازم امشي".

خرج "زين" بسرعة، أغلق الباب وراءه بحركة أصدرت صــوتاً مرتفعاً.

"ليه قلتيله هيك هاديا، بين عليه إنه تضايق كتير، ما كان فيه داعي لهالكلام".

" في داعي، ما شفتي كيف وجهه تغير بس سمع اسمها، خلص هي ما بتحبه، وهو لازم يقتنع بهالشي وينسى، ويتعامل عادي .. اللي يبيعك بيعه".

"أوف هاديا أنت بتعرفي منيح إنه خيك مش من هالنوع من الأشخاص، وأنه بيضل متمسك بقناعاته وأشيائه والناس اللي بيحبهن لآخر لحظة، صح أو أنا غلطانة؟"

"صح..بس في حالة هند ما بينفع هالكلام، البنت بتحب ومتل ما عم تقولي إنها رح تتزوج، والكل عارف هالشي".

اندفعت للقول :

"انا قلت يمكن يتزوجوا ..هلق عاملين مساكنة".

غرقت هاديا في ضحك مفاجئ وهي تقول:

"وين خيي يسمع إنها عاملة مساكنة، وهو اللي بعده عايش بالقرن الماضي".

"لا هاديا.. زين مش عايش بالقرن الماضي بس عنده قناعات معينة اجتماعية ودينية وملتزم فيها، كل واحد حر بحياته، يعني ما حدا لازم يستنكر أفكار التاني .."

"طيب وأنت شو رأيك بالمساكنة؟

"أنا.. ما بعرف... ما فكرت بالموضوع، يعني ما حدا عرضها علي، بس تنعرض علي بفكر".

تناولت هاديا علبة سجائرها "مارلبورو لايت" من حقيبة يدها، أشعلت سيجارة وهي تقول:

"بتعرفي ندى.. أنا عم فكر أعمل هيك شي، بس بشكل تاني، يعني متل زواج سري".

غمرني إحساس بالذهول واندفعت مني أسئلة متلاحقة:

"مين؟ كيف ايمتى ؟ ليه؟"

"روقي .. رح خبرك.. بتتذكري "معاذ" الشاب الخليجي اللي قلتلك عنه من أسبوعين إنه جاب لي بارفان هدية، عرض إنه يتزوجني بالسر، ويجيب لي شقة هون، ويصير يجي كل شهرين أو ثلاثة يمضي أسبوع أو أكتر ويفل".

"بس أنت ما بتحبيه، على حسب ما فهمت منك".

"شو ضروري حبه، شو رح أعمل بالحب".

"هاديا.. حبيبتي أنت بتعرفي إني ما بقتنع بهيك حكي".

"ما بتقتنعي.. لكن بشو بتقتنعي .. أنت لما عملتي علاقة مع محمدو كنتي بتحبيه صح.. بس ما قدرتي تتزوجيه.. كان عندك أسبابك.. مش هيك.. شفتي كيف الحب ما بيفيد دايما".

"أنا ظروفي مختلفة.. بعدين بليز ما بحب أحكي بالموضوع".

ساد توتر في الغرفة، كسرت هاديا الصمت بعد مرور ما يزيد عن دقيقتين، قالت لي في ما يشبه إعتذار:

"معلش ندى مش بقصدي.. هيئتي اليوم زعلت زين وزعلتك.. أنا رح فل هلق، فكري بموضوع الشغل اللي قلتلك عنه، بروح معك بس بدك تقدمي الطلب".

بعد ذهاب هاديا كنت انظر الى قالب الحلوى وأحس بحيرة ماذا سأفعل به؟ ليس لي أية علاقة مع الأطعمة الحلوة، فقدت متعة الإحساس بالمذاق الحلو منذ ما يقارب سبعة أعوام حين بترت رغباتي نحو الشوكولا والحلويات.

من قال إن الرغبات لا تبتر نهائيا؟

في داخلي أتمنى الآن لو كان بمقدوري أكل قطعة من قالب الحلوى والاستمتاع بها. لكن الإحساس بنكهة الأشياء شديدة الحلاوة ترفع إلى سطحي أحاسيس متشابكة ما بين الذنب والغثيان والبدانة المتخيلة، المرار أيضاً، غالباً حين أجبر نفسي على تناول قطعة من "الجاتوه" أو "البقلاوة" أو "الشوكولا" أن تترك عندي طعماً مراً يلازمني وقتاً طويلاً حتى أنساه، وقتاً يجعلني أتوقف عن الاقتراب من السكر لأشهر عدة.

* * *

استيقظت باكراً.

ليلتي على ما أذكر خالية من الكوابيس والأحلام، نمت عدة ساعات متواصلة. لم أبصر من شق باب غرفتي المفتوح على ظلمة أية وجوه مرعبة بشعور سوداء منكوشة، أو عيون خالية من الحواجب والرموش تنفتح باتساع وتتحرك حدقاها بسرعة، وجوه بأسنان كبيرة

وسط فم يشبه فم التمساح، لم أشاهد كل ذلك هذه الليلة كما لم أحس بحضور "الجنية" المرعبة ذات الشعر الأحمر التي تزورني بين حين وآخـــر، تقف مقهقهة قرب سريري تمزه كثيراً ثم تمضي بعـــد أن تتأكـــد أنـــني استيقظت مفزوعة.

أخذت حماماً سريعاً، شربت قهوتي، وأكلت قطعة من الجبنة المربعة، ارتديت ثيابي، بنطلون أسود، وبلوزة بيضاء، أحسست أن وجهي يبـــدو مرهقاً رغم أنني نمت جيدا تلك الليلة.

كبست زر تشغيل كمبيوتري، العالم الرائع الذي أعـــيش فيـــه، نافذتي على العالم، على واقع آخر يوازي واقعي أهمية، عبره تواصلت مع مانويلا ومع فواز وغيرهم. عبرمدونتي تعرفت إلى حكايات كثيرة تتقاطع مع حكايتي، وكتب إلي أشخاص أرعبتهم الكوابيس التي تنتابني، البعض كتب لي ليعطيني نصيحته ويسألني عن دياني، فيما شخص آخر قـــال لي أنني ممسوسة وينبغي علي إبعاد هذا المس عن طريق زيارة أحد الشيوخ. اتفق الكثيرون مع هذا الرأي، ولم يعلق سوى ثلاثة أشخاص على الرأي القائل بأن علي استشارة طبيب نفسي لأني أعاني من اضطرابات نفسية.

أخاف أكثر..

يزداد هلعي وأنا أسمع نصيحة اللجوء الى طبيب نفسي .. أتجاهل المرسل، ولا أعلق على رسالته.

استمر في كتابة يومياتي، عن الموسيقى التي أحب، عن الأفلام التي تترك مشاهدها بصمات في روحي، أحكي عن بيروت في أيام الصـــيف،

عن الشمس والبحر، عن السياح الذين تزايد عددهم هذا العام مقارنـــة مع العام الماضي، أكتب عن علاقتي مع أمي التي تمضي أيامها بين البحـــر والجبل. أحكي عن هند صديقتي الشجاعة، وعن نجلا جارتي التي ليس لها علاقة بالكمبيوتر لكنها تفرح لأنني أكتب عنها. أكتب عن زياراتي لعمتي في المستشفى، وعن الرعب الذي يلاحقني طوال يومين عقب كل زيارة.

يطلب مني قراء مدونتي وضع صورتي، أتردد رغبـــة بمزيـــد مـــن الغموض، مع وعد بالقيام بذلك قريباً. أتبادل عناوين المدونات مع رفاقي الأنترنتيين، أقرأ في مدونة "أمنية الفتاة الغريبة" عن حياة فتاة عراقيـــة في كندا، منذ هروبها أيام حكم صدام حسين وحتى وقوع العـــراق تحـــت الاحتلال الأميركي، تصف أمنية تجربتها مع الكتابة، وقرارها طباعة كل ما كتبته في كتاب، أرسل إليها رسالة تحفزها على ذلك، نصير صـــديقتين مع استمرار الرسائل اليومية، نحكي لبعضنا باستفاضة، نبوح بما نتـــردد بالبوح به لو كنا نجلس وجها لوجه.

أدخل الى مدونتي، أقرأ التعليقات المكتوبة حول أغنيـــة "ســـيلين ديون" التي أضفتها البارحة. تطلب مني قارئة تطلق على نفسها اسم "ابنة الخريف" أن اضع أغنيات للمغنية الكولومبية "شاكيرا".

فتحت التلفزيون على قناة الأفلام، كان فيلم "نهر الحب" لفـــاتن حمامة وعمر الشريف، فكرت أن اكتب لقراء مدونتي عن سمو أداء فاتن حمامة في هذا الفيلم، تحولها عن أدوار الفتاة البريئة لتـــدخل في منـــاطق نفسية أكثر صعوبة. قلبت المحطات متنقلة إلى قناة الأفلام الأجنبية، كان

فيلم "الساعات" الذي يروي جزءاً من حياة الكاتبة البريطانية فيرجينـــا وولف، على قناة الأفلام الأجنبية الثانية كان هناك فيلم أكشن لسيلفستر ستالون، عدت لفيلم "الساعات" كان في لقطاته الاخـــيرة حـــين تـــترل فيرجينا وولف الى الماء منتحرة ويتردد صوتها وهي تغوص أكثر في المـــاء قائلة:

"ينبغي على البعض أن يموتوا ليقدر الباقون قيمة الحياة".

* * *

غادرت البيت عصراً.

ذهبت إلى زيارة هند في البيت الذي تسكنه منذ أشهر مع زياد في "شارع حمد".

عند مرور السيارة من أمام سكن الموتى، تذكرت أن جـــدتي وأبي دفنا هنا في "مقبرة الشهدا"، في ذات القبر ، جثة على هيكل، ارتعاش في قلبي، برودة في أصابعي، أشد على حقيبة يدي، أقـــرأ "الفاتحـــة" علـــى روحيهما، وأتذكر أنني لم أجرؤ على الدخول أبدا إلى "المقبرة". لماذا كنت أخاف كل هذا الخوف، وكما لو أن القبر سينفتح ويظهر لي رأس جدتي ثم تندفع يداها لتقبض عليّ لأكون بجوارها، فيما أبي سيهز رأسه بالموافقة كما يفعل عادة.

نزلت من السيارة قرب تعاونية صبرا، شارع "تعاونية صبرا".

تبدو لي واجهة محسنة قليلا مقارنة بالمناطق المختفية خلفـــه ،"أرض جلول" ثم منطقة "صبرا" التي تعتبر أحد الأماكن التي تخـــزن البـــؤس في

بيروت، إنها خليط من كل شيئ، ومـــن عـــدة جنســـيات، اللبنانيـــة، والفلسطينية، العراقية، السورية، والسودانية وغيرها، مكان تحدث علـــى أرضه أشياء قانونية وغير قانونية، لكنها تتم بعشوائية كما هـــي حـــال المكان وسكانه المغمورين بالفقر والبطالة والجهل. أناس مشاكلهم منسية تماما وقلما يتم الحديث عنها في العلن، رغم أنها من الممكن أن تنفجـــر في أية لحظة وتطفو على السطح مباشرة، مهددة بالخراب. أذكر في برنـــامج شاهدته على التلفزيون عن بيروت في أوائل القرن الماضي أن هذا المكان كان فيه سكة قطار استحدثها الجيش البريطاني الذي احتـــل بـــيروت في الحرب العالمية الثانية عام **1941** وكانت سكة الحديد تمتد من "تعاونيـــة صبرا" حاليا الى تربة الداعوق فالمطار القديم مرورا بأرض جلول بمحاذاة تربة ضحايا جنود الحلفاء، ثم تدخل المكان المسمى الآن بحرج بيروت.

كنت أمشي، أنظر نحو الزحام، سيل من الســـيارات يهـــبط مـــن "طريق جديدة"، عند مفرق "الدنا" تبـــدو الأرض مســـتوية قلـــيلا أو منخفضة نسبيا، ثم ترتفع في الشارع المتجه نحو الجامعة العربيـــة، بحيـــث يبدو جامع "الأمام علي" كما لو إنه مبني على بداية هضبة صغيرة.

"شارع حمد" أكثر هدوءاً، بعيداً عن صخب الشـــوارع المجـــاورة، شارع صغير وجانبي، وكما لو إن سكانه كانوا هنا منذ أيـــام بـــيروت العتيقة، لقد استمد هذا الشارع اسمه من اسم الشهيد "عمر حمد" الذي أعدمته تركيا مع شهداء آخرين في السادس من آيار عام **1916** .

كبست الجرس مرتين، صدى الرنين لطيف وغير مزعج للأعصاب. فتحت لي هند الباب، كانت ترتدي بنطلوناً أزرق من القطن وبلوزة قطنية بيضاء، شعرها الأسود القصير بالكاد يغطي العنق. تطلي هند شفتيها بلون وردي صريح، إنه الزينة الوحيدة التي تضعها على وجهها.

في غرفة الصالون كانت تضع موسيقى "بودا بار".

بدأت تحدثني بحماس كبيرعن محاضرات "التأمل التجاوزي" التي ترتادها منذ شهر ونصف، وعن الطاقة الروحية التي صارت تتدفق منها.

"شي رائع ندى، تحليق روحاني غريب بتحسي فيه".

"شو بتعملوا يعني؟" أسألها.

"المحاضرة الماضية طلب منا المحاضر نجيب معنا قطعة قماش بيضا، وتفاحة، ونفرد القماشة وعليها التفاحة، ونتأمل.."

"وبعدين؟"

– "بعدين بتصيري حاسة بانسجام مع الكون حولك، بتحسي إنك متوازنة وعم تتخلصي من تراكمات الحياة العصرية".

"يوغا يعني".

"لا.. لا.. شي تاني أعمق... مش رح تفهمي الحالة إلا إذا جربتيها".

فجأة تنتقل هند الى موضوع آخر قائلة:

"ندى الأسبوع الجاي رح نسافر أنا وزياد على قبرص لنتزوج مدني".

"ايه انتوا صارلكن مدة عم تفكروا بالموضـــوع .. يعـــني خلـــص أخدتوا القرار؟"

"ايه خلص .. أنا خبرت أهلي وهو خبر أهله.. مش موافقين بـــس خلص هيدا قرارنا وبعدين أنا وزياد معتمدين على حالنا عـــم نشـــتغل وعايشين والدنيا ماشية ما بدنا حدا يتدخل بحياتنا... بكل الأحوال نحنـــا رح نتزوج ونسافر على دبي بعد كم شهر بس لنخلص الأوراق".

"دبي..؟ ليه؟"

"أنا بدي أدرس بأكاديمية الطب التكميلي.. وزياد بده يشتغل".

"ما بعرف هند شو بدي قول.. بس زمان نحنـــا وصـــغار كنـــت تتضايقي لأنه بيك وأمك طلعوا خطيفة وأهن من ديانتين مختلفين، كنـــت تبكي لما يتخانقوا.. كنتي تضلك تقوليلي يا ريت ماما وبابا غير هيك .. يا ريتهن ما بيتخانقوا هالقد .. بتتذكري لما كنتي تحكيلي كيـــف ســـتك لبيك بدها تاخدك على الكنيسة، وأمك كانت تتخانق معهـــا.. و بيـــك يعزل حاله عن الكل ويمشي من البيت".

"ما عادت القصة هيك ندى.. أنا تغيرت كتير.. وفهمـــت الـــدنيا أكتر.. والغريب إنه بيي وأمي اللي ربوني على الحرية صاروا عم يناقدوا حالهن وبيقولولي "فكري.. وعلى مهلك.."

تذهب هند إلى المطبخ تضع أبريق الماء على النار، ثم تتناول مرطباناً فيه خليط من الأعشاب تضعها في أبريق زجاجي شفاف ثم تضع عـــودين

من القرفة، تصب عليه الماء المغلي تحركه قليلاً وتتركه قرب شباك المطبخ الذي يطل على موقف سيارات أسفل المبنى، تقول:

"رح اتركه يبرد شوي.. تعي لنقعد جوه.. بتعرفي ندى بستغرب إنه ببلد متل لبنان ليه ما بيصرحوا بالزواج المدني، مش غريبة هالقصة، وليه ما بيسمحوا إنه الطفل يتسجل باسم أمه متل ما بيعملوا بإسبانيا، يعني "الأمومة يقين بس الأبوة شك"، مش هيك بيقول سعيد عقل.

رن الجرس رنتين، ثم دار المفتاح في الباب.

"اجا زياد" قالت هند.

اقترب زياد وسلم علي ثم عانق هند وجلسا متقاربين.

"كنت عم خبر ندى إننا مسافرين نتزوج".

قلت:

"اسمع شو بدها هند.. بدها يسجلوا الطفل باسم أمه".

ضحك زياد بسخرية ثم قال "ايه ما هالبلد ظاهريا متحرر لدرجة بيبين أنه غربي أكتر من الغرب، ومن جوه هو مجتمع طائفي.. وطبقي واستهلاكي وتقليدي بشكل عجيب".

قلت :

اف كل هيدا.. هيئتك لأنه قرب سفركن ما عدت طايق البلد.

كان زياد يتكلم عادة بسرعة، لكن هذه المرة كان متوتراً أيضاً قال:

بلد عجيب.. حتى سواق التاكسي بيشرح نظريـات بالسياسـة وبعلم الاجتماع ولازم نستمع ونقله صح.

قاطعته هند موجهة حديثها لي قائلة :

"بتتذكري سنة الماضية لما كنا عم نزور خالتك بالبقاع ولما سـألنا جارتها أم أسعد عن بنتها "هويدا" ما كنا عارفين إنه أخوها قتلها ورماهـا بالبير، وأنه كل الناس سامعين القصة بالأخبار إلا أنا وأنت كنا عم نسأل متل الهبلان.. بتتذكري بعد ما مشيت أم أسعد كيف خالتك قالتلنا "أيه ولو يا خالتي ما انطبلت الدني بحكاية هويدا وقصة خيها وكيف اعتـبروا القتل جريمة الشرف".

"وأنا كمان متلكن ما سامع بالقصة.. بس هويدا كان عليها جـوز عيون بيجننوا"، قال زياد وهو يبتسم بخبث.

وأنت وين شفتها؟ تسأله هند بغيظ ظاهره استغراب.

يضحك زياد بصوت مرتفع قائلاً:

والله ما شفتها وين بدي شوفها.. عم امزح

"فكرت إنه شفت صورتها على التلفزيون لما حكيوا عن الجريمة .. بتشرب شاي أعشاب، سألته هند وهي تدخل الى المطبخ.

"لا حبيبتي خلي هالأشيا إلك، أنا رح أعمل قهوة".

توجه زياد لي بالكلام قائلا وهو يسير باتجاه المطبخ:

"بتعرفي ندى شو أول شي بيعمله اللبناني بعد ما يتعرف على اسمك الأول؟

قلت: "شو"؟

بيسألك عن التاني يعني اسم العيلة، وإذا ما قدر يوصل من خلالـه للشي اللي بده يعرفه بيسألك "ومن وين بلا زغرة؟"

بتقومي أنت بتقوليله عن ضيعتك بيقوم بيعملك فرز ميداني سريع ليشوف من وين إنت.. شمال.. جنوب.. بيروت.. البقاع... بس بتعرفي أحلا شي لما بيكون الأسم محير ما بيوضح شي، ولما تكون الضيعة فيهـا مسيحية وإسلام...لو تشوفي كيف بيبين محرقص اللي عم يسأل".

ضحكت كثيرا وزياد يقلد بملامح وجهه ويديـه الحكايـة الـتي حصلت معه في التاكسي.

دخلت هند سألتها:

"ايمتى مسافرين بالظبط؟"

" أول الشهر الجاي رح نقعد أسبوع ونرجع"

"نيالكن"

"ليه نيالنا.. كان فيكي تعملي هيك بس إنت جبانة شوي.. صـح أو أنا غلطانة.."

كانت تلمح الى حكاية "محمدو"، لم أعلق في البداية، ثم قلت :

"يمكن كان فيي أعمل هيك.. بس بالنتيجة ما عملت".

نظرت لي هند نظرة مباشرة ثم قالت:

"لازم تهتمي شوي بالنتايج ندى.. صح... ما تتركي الدنيا تختـار عنك على طول... لأنه مش دايما الاختيارات بتكون لصالحك".

* * *

بدأت علاقة هند مع زياد منذ أيام الدراسة، حدث بينهما تجــاذب الاضداد. هو واقعي لا يؤمن سوى بالأشياء الملموسة، تسير حياته وفــق قانون واضح، التفوق في الدراسة والعمل بهدف تحقيق النتائج في أقصــر الأوقات، ورغم أنه يعيش صخب جيله وحيرته وتشتته بــين قناعــات متباينة، لكن زياد الذي ظل يتحرك ضمن مربع قناعاتــه بالبروليتاريــا لم يكن يترك فرصة من دون الحديث عن شيوعية ماركس وليــنين وعــن تدهور العالم بعد تصاعد الرأسمالية وتقهقر معسكر اليسار، كان قارئاً نهماً في الفلسفة وعلم الاجتماع ، لذا كان يوجه سخريته اللاذعة لكثير مــن الأحكام الدينية مصرا على أن هذه الآراء إذا كانت صــحيحة، أي إذا كانت كلام الله فعلاً فإن من قام على تفسيرها قد عمد من خلال تلــك التفاسير إلى استعباد البشرية وإخضاعها لسلطة الكنيسة والجامع. لم يكن زياد يشكو من ضائقة مادية، والده أستاذ في الجامعــة، وأمــه مــديرة مدرسة، لكنه أصر على البدء بالعمل منذ سنته الجامعية الثانية، بــدأ في تدريس اللغة الإنكليزية في مدرسة ابتدائية، وبعد تخرجه انتقل الى تعلــيم المرحلة الاعدادية.

يتقن زياد التخطيط لمستقبله جيدا، يعرف كيف يهنــدس الوقــت بحيث لا يترك أشهر الصيف الثلاثة تمر من دون إنجــاز واضــح مثــل الالتحاق بدورات تعلم اللغة الفرنسية، أو المشاركة مع مجموعــة مــن الشبان والشابات في تنظيم دورات مجانية لتعليم الأطفال على الكمبيوتر.

هند التي تؤمن بالقدر كان لها اهتمامات أخرى، هي التي نشـأت وحيدة من دون أخوة او أخوات وبين أبوين مختلفـي الديانـة، خـلال سنوات الجامعة كانت ناشطة في مجال الاهتمام بالبيئة، كنـت أرافقهـا أحياناً في جولات جماعية الى الأحراش والغابات، ثم بعد تخرجهـا مـن الجامعة انشغلت في البحث حول عوالم الفلك وعلم الطاقـة والظـواهر الغريبة، تحاول جاهدة الموازنة بين المخزون الديني لديانتين تعرف القليـل عن كل منهما، وبين اهتماماتها الخاصة في معرفة تأثير حركة الفلك على الناس، وفي التخاطر عن بعد، وفي التأكد من حقيقة التقمص، وبين آراء زياد المادية التي تنفي تماماً كل ذلك، بقوله:

"كل هيدا الحكي حبيبتي عبارة عن كهربا زايدة بالمخ، ما في شـي اسمه تخاطر عن بعد، هيدا وهم كبير، وكل هيدي المواقع اللـي بتفـوتي عليها على الإنترنت بدها تلم مصاري من الناس اللي متلـك بيصـدقوا هيك حكي.

اهتمامات هند لم تكن واضحة في البداية، كما لم تكن تسلك طريقاً محدداً في تلك الاهتمامات، لذا كانت تتأثر بكلام زياد وتنصرف شهوراً عن اهتماماتها، تتوقف عن القراءة وعن البحث خاصـة حـين تقـع في مواقف فيها تدليس وخداع، كأن تشتري مجموعة مـن الكتـب عـبر الإنترنت ثم تفاجئ أن المعلومات التي فيها سطحية للغاية وأن الهدف كله الحصول على مال فعلاً، ظلت على هذا الشك حتى جاءت في يوم مـن الأيام وقالت لي إنها ستمضي في البحث حول قناعاتها ولابد أن تصل يوماً

لشيئ حقيقي ينفي أو يثبت ما تؤمن به، قالت لي إن لحظة "التنوير" هذه حدثت بعد حلم شاهدت فيه جدها لأمها، لكنها لم تحك عن الحلم سوى أنه تجربة روحية داعمة لها. منذ ذاك "الحلم" شكلت هند سوراً خاصاً حول اهتماماها، ومنعت أي احد من الاقتراب منه.

* * *

أظن أن البشر ابتدعوا الصداقة ليتخلصوا من عزلتهم المفروضة عليهم بحكم الطبيعة.

العزلة التي تبدأ مع حصار العقل. فالعقل الذي يعتبر خزان الافكار واللغة هو في الوقت عينه سجن إنفرادي، كهف معتم جداً، بيت سري لا يعرف ما فيه إلا من يقطنه، بل إن من يقطنه لا يعرف تماماً ما فيه،لكثرة ما يحتوي من دهاليز،وغرف سرية.

أدركوا أنهم لو لم يبتدعوا كل تلك الصلات البشرية الراقية، ويعنونوها بأسماء مختلفة سيظلوا يحيون في جزر منعزلة يحكمها قانون القوة والمنفعة لذا تواصلوا للقضاء على الوحدة، ليس فقط خوفا من الفناء، بل فرارا من الوحدة أيضاً، الوحدة التي تتخذ وجوها مختلفة.

تعرفت إلى هند عند بيت مدام "يسرى" الذي تحول الى معهد لتعليم الكمبيوتر فيما بعد، كانت زميلتي حين التحقت لتعلم دورة في الكمبيوتر حين كان عمري خمسة عشر عاماً. صرنا أنا وهند صديقتين بسرعة غريبة، كان بيننا مشاركة في إحساس الغربة عن سائر البنات.

كنا نبحث عن عالم آخر أكثر رحابة. عالم لا يحاسبني على طلاق أمي وأبي، ولا يشفق علي لأن جدتي هي التي ربتني، عالم لا يحاسب هند لأن أبويها من ديانتين مختلفتين، ولا يترددان في الجهر بأنهما يدينان بمذهب "الأخلاق السامية" فقط ولا يلتزمان بتعاليم الأديان، ولم يدركا أن ابنتهما يكبر في داخلها وجع ما كلما سألها أحدهم "أنت مسيحية أم مسلمة" وأنها تأخرت حتى تصالحت مع هذه المنطقة المعتمة في داخلها.

كانت مدام يسرى تركن سيارتها في شارع قريب من شارع بيتنا، وقد وضعت على السيارة ورقة مكتوب عليها إعلان يشبه إعلان "تعليم قيادة السيارات" لكنها كتبت عوضاً عنه "تعليم الكمبيوتر" ورقم الهاتف. بدا الأمر بالنسبة لي مجرد محاولة لم أكن أظن أنها ستكون جدية.

قالت لي أمي في تلك السنة قبل سفرها:

"ندى حبيبتي لازم تتعلمي كمبيوتر لصير أحكي معك وشوفك ونعمل شات كل يوم، وإلك مني اني جيبلك كمبيوتر السنة الجاية".

لم أكن أفهم ماذا تعني أمي بعبارة "نصير نعمل شات كل يوم"، كما خجلت من سؤالها. حصة الكمبيوتر الأسبوعية لم تكن مدرجة في المنهج الدراسي، لذا كنت أخمن أن دخولي هذا العالم يشبه المستحيل. معرفتي للعالم تتم عبر التلفزيون، بالإضافة إلى غرامي بالأفلام والمسلسلات كنت مغرمة بالبرامج الوثائقية، لذا حدث مرة أن سمعت في احدى البرامج عن تأثير الكمبيوتر على الأجيال القادمة، خبير أنترنت قال "إذا جاء عام

2000 على أحد وهو لا يعرف استخدام الكمبيوتر، فهو أمي بالنسبة لعصره".

في ذاك الوقت كان يفصلني ثلاثة أعوام عن قدوم زمن أصير فيه في عداد الأميين، لذا صرت مشغولة بوسيلة تمكنني من فك لغز تعلم الكمبيوتر.

اتصلت على الرقم الذي وجدته على سيارة مدام "يسرى" رحبت بي المتحدثة بلطف ودماثة، أعطتني العنوان وذكرت لي مبلغاً بسيطاً من المال للالتحاق بدورة الكمبيوتر. احتفظت بالسر عن جدتي وعن أبي لمدة أسبوعين ظللت أتردد خلالهما ثلاث مرات أسبوعياً على بيت مدام يسرى في حجج ملفقة أتغيب فيها ساعة ونصف من الزمن. فيما بعد حدث معي ما يحدث في الأفلام العربية الأبيض والأسود.

تتبعتني جدتي إلى بيت مدام "يسرى" لم يكن قد مر على دخولي خمس دقائق وجلوسي أمام شاشة الجهاز المغرية، حتى رن الجرس وفتحت مدام "يسرى" الباب لجدتي التي بدا عليها التحفز للهجوم وهي تسأل عني، ربما ظنت أنني في زيارة لبيوت إحدى صديقاتي اللواتي لا ترضى عنهن لكن حين وجدتني أمام الشاشة البيضاء لم تعرف ماذا أفعل هناك، لذا أمام جهلها بحقيقة الموقف لم يمكنها إلا أن تأمرني بالعودة لأن أبي يريدني في الحال، رغم أن أستاذتي شددت في الترحيب بجدتي قائلة: "أهلا مدام.. أنت أمها لندى". بدا على جدتي أنها أعجبت بكلمة "مدام"

هي التي اعتادت أن يناديها الجميع "يا حجة" أو في أحوال أخرى"أم أحمد". منحت شبه ابتسامة لمدام "يسرى" وهي تستأذنها بالانصراف.

"أمشي قدامي يا مقصوفة العمر". نزلت الجملة على سمعي مع ضربة على أعلى ظهري ونحن ندخل الأسانسير. كانت جدتي تمشي في الشارع مثل دجاجة منفوشة الريش، ترتدي تنورة سوداء ضيقة، وقميص بألوان عدة يغطي عظام الورك، صدرها مرتفع إلى أعلى، قامتها إسطوانية الشكل، ورأسها ملفوف بإيشارب أبيض، تحرص جدتي على الظهور بأناقة السيدات عادة، كما تحرص على ارتداء خاتمها الثمين ذي الحجر الياقوتي الأحمر في بنصر يدها اليسرى، وعلى وضع أسورتها العريضة في يدها اليمنى، تلك المرة بدت غير أنيقة، وبدت أقصر قامة لأنها ارتدت حذاءً مسطحاً لسهولة الحركة، ولكي تتمكن من اللحاق بي. كنت أسير خلفها بخوف وهي لا تتوقف عن وضع سيناريوهات مفترضة عن شخصية مدام "يسرى" إذ رغم توضيحي لها عن هويتها كأستاذة كمبيوتر في أحد المعاهد، وعن قيامها بدورات كمبيوتر بمبالغ بسيطة لأنها تنوي تأسيس معهد وبانتظار الحصول على رخصة للبدء بمشروع أكبر.. إلا أن كل ما قلته لم يقنع جدتي، لأنها أطلقت خيالها الرحب في التكهن والافتراض بأن تعرضي لخطر محدق كان أمراً واقعاً، لولا إنقاذها لي في اللحظات المناسبة.

لم يكن الأمر لينتهي بهذا الشكل، فما أن وصلنا إلى البيت، وقبـــل خروج أبي عصراً ليلعب الورق في نزهته اليومية، حتى ارتفـــع صـــوت جدتي متردداً في أرجاء المترل:

"أنا ما عاد فيي على بنتك يا أحمد.. شوف لك حل معاها .. أنت مش عارف هلق من وين جايبيتها.. "

أبي الذي يقابل أحداث الحياة كلها ببروده المتأصل في شخصـــيته والذي كان معتاداً على مثل تلك الثورات الهائجة من جدتي، خاصة حين تحتاج إلى طلب المال منه، لم يبادرها بالسؤال عن التفاصيل، توجه نحوي سائلاً:

"شو القصة، كيف يا بيي بتروحي على محل من دون مـــا تخـــبري حدا، بلكي طلعت هالست بنت حرام وعملتلك شي، وأنـــت كيـــف بتصدقي إنها معلمة كمبيوتر مش يمكن بتشتغل شغل ما بيسوا؟"

"يا بابا أنا رحت أتعلم كمبيوتر لأعمل شاتنغ مع ماما، وبعدين كل الناس عارفين إنها بتعلم كمبيوتر".

لم يفهم أبي حتماً معنى كلمة "شاتنغ"، لكن كان يكفي ذكر كلمة "ماما" ليصير الموضوع أكثر سهولة، كنت بغريزتي أعرف أنـــه في رغبـــة دائمة لسماع أخبارها، ربما كان في رغبة أن يسمع مثلا أنها تعيسة أو أنها انفصلت عن زوجها أو أنها عادت لتستقر في بيروت.

عدت وأوضحت كلامي قائلة وسط دموعي:

"بدي أتعلم كمبيوتر علشان صير أحكي كل يوم مع ماما".

وتبرعت وحدي بالحكي عن مدام "يسرى" وعن الطلاب الـــذين معي بأنه معظمهم بنات وما في غير شاب واحد، بل بالغت في القول إن بإمكان جدتي الذهاب للتأكد من حقيقة كلامي.

ولأن أبي لا يحب الصدامات، ويعرف أن الأمر سيظل معلقاً وقد يسبب له نكدا متواصلا او يوميا إذا أنا أصريت، وإذا تمادت جـــدتي في الرفض، حسم الأمر بقوله "ايه خلص يا حاجة، ابقي روحي معها وشوفي الجو هونيك كيف شكله" ملقيا بالمسؤلية في عباءة جدتي كالعادة.

كانا يتحدثان كما لو إن "جدتي" ستقوم بدور جيمس بوند الـــذي سيكشف عن العصابة، وكما لـــو إن درس الكمبيـــوتر هـــو درس في التدريب على السرقة أو أي نوع آخر من الانحرافات.

تستلذ جدتي في مراقبتي، وفي إحكام سيطرتها على عوالمي. كانـــت متمكنة من ذلك، وكنت أحس بالاختناق. رافقتي ثلاث مرات متتالية إلى دروس الكمبيوتر ولما تأكدت من حقيقة الموقف تركتني اذهب وحدي.

لم أفكر في علاقتي مع جدتي من قبل، لم أفكر في طبيعة تلك العلاقة، ربما لأنها صلة لا تحتمل التفكير،أو لأن التفكير في جوهرها لن يغير شيئا. كانت جدتي امرأة قادرة على الشفقة والقسوة في آن واحد. عند بدايـــة تفتح أنوثتي كان من الضروري بالنسبة لها أن تقوم باحتياطات تؤمن لهـــا أن لا يفلت زمامي، وأن لا أجلب لها أية فضيحة تجر عليهـــا مصـــائب اجتماعية، لذا كانت تتفانى أمامي في تسخيف فكرة الأنوثة وتجاهلـــها، لأن أي مسلك غير قويم مني سيطعن في تربيتها لي، ويشكك في حرصها

علي. لكن رغم ذلك يمكنني القول أنها كانت تحبني نوعا من المحبة الكامنة التي لا تظهرها كي لا يفسدني الدلال، ربما لا ينبغي علي لومها أبدا لأنها تعاملت معي وفق المبادئ التي نشأت عليها ولا تعرف غيرها. في الأوقات التي تكون عمتي فيها معنا في البيت، وتكون في تمام وعيها، غالبا ما نشكل أنا وهي وحدة للفرار من قبضة جدتي، كنا نتحايل عليها حتى تنام، ثم نسرع في استدعاء بنات الجيران للسهر معنا في الصالون مع التنبيه عليهن بخفض أصواتهن، وفي أحيان أخرى كنا نوهمها أننا عند إحدى الجارات ثم نتسلل خارج المبنى كلية في جولة سريعة إلى أماكن مجاورة. لن أقول أن جدتي كانت لا تعرف تماما بتلك الهروبات الصغيرة، لكنها كانت تغض الطرف بذكاء أم محنكة.

كانت أحلى الأوقات معها عندما تكون رائقة، وتحكي لي عن أيامها في الضيعة، وعن حب جدي لها حين كان عمرها أربعة عشر عاما، وكيف غارت منها كل البنات لأنها تمكنت من الزواج منه لأنه كان وسيما والابن الأكبر لأحد وجهاء الضيعة. تذكر أيامها معه بكثير من الفخر، تحكي عن الأقمشة والفساتين التي كان يشتريها لها من بيروت، والتي لا تتشابه مع ثياب النساء الأخريات في الضيعة، ثم وهي تحكي ينقطع الحديث الجميل، فجأة عند موت جدي وانقلاب الزمن عليها، وما تلا ذلك من أحداث قاسية بما فيها الحرب ومرض عمتي.

* * *

سينما

تموت البطلة التي لم أعرف اسمها في نهاية فيلم:
"SWEET NOVEMBER"
كما تموت "وينونا رايدر" في نهاية فيلمها مع ريتشارد غير:
"AUTUMN IN NEWYORK"

أُفضِّل النهايات المأساوية، ثم أحاول أن أقنع نفسي فيما بعد أن ما يحدث يتم على الشاشة فقط. القصص التي تنتهي برحيل البطلة وغرق البطل في أحزانه لفقدها أتأثر بها جداً.

البطلة هي التي عليها اختيار وقت الرحيل، أو هي التي عليها أن ترحل دوما قبل البطل، أستعذب رحيل البطلات وغيابهن في الحياة وعلى الشاشة.

كتبت اليوم في مدونتي عن موت البطلات في الأفلام، قلت إنني لا أستطيع منع نفسي من البكاء لحظة موت فاتن حمامة في فيلم (الحرام)، ولا حين كتمت بيدها صرخة وليدها منعاً للفضيحة، ثم تسيل دموعي مع العبارة التي تقال آخر الفيلم:

"وعاد عمال الترحيلة يعملون تحت السياط.. وصارت الشجرة التي ولدت تحتها عزيزة ابنها الحرام مزاراً للنساء الباحثات عن الولد بالحلال".

حين كنت أذهب إلى السينما، أذهب سراً عن جدتي، في الأيام التي أتأكد من غيابها لساعات، أهرب إلى السينما، الأفلام تحملني إلى عالم

آخر، إنها عقار سحري بالنسبة لي.لن تصدق جدتي أنني أذهب وحـــدي إلى السينما لذا كنت أكذب عليها ، حتى في زمن علاقتي مع محمـــدو لم أرافقه إلى السينما إلا مرة واحدة، كنت أخاف أن تراني أحـــد برفقتـــه. خوف طبع في داخلي رغم أنني بت وحيدة الآن أتحكم في يومي بل وفي حياتي كلها.

* * *

هجرت محمدو بلا أي تبرير أو عذر، انقطعت عن زيارتـــه، وعـــن الرد على اتصالاته. كنت أعد الأسباب التي تمنعني من مواصلة علاقتنـــا، أكررها على ذاتي عبر صفحة بيضاء على جهاز كمبيوتري وضعت لهـــا اسم: "نهاية مبكرة". أكتب فيها أسباب فراقنا، كنت أعيد قراءة هـــذه الصفحة كلما أحسست برغبتي في التراجع، كلمـــا أحسســـت بـــذاك الشغف والهذيان الذي كان يقودني إليه كل مرة.

بدا الأمر مرعباً بالنسبة لي حين عرض علي أن نظل معـــا، ظننتـــها دعابة، ضحكت عالياً، لكن ملامحه بدت جادة وحاسمة وهو يسألني عـــن مشاريعي في الحياة، وعن إمكانية ارتباطنا وسفري معه .. يومها حكـــى كثيراً، قال إنه انفصل عن خطيبته، وأنه بإمكاننا البقاء في بيروت حـــتى تخرجي وحتى انتهائه من رسالة الماجستير، وفيما بعد ربما نسافر معـــاً، لم أكن استمع للتفاصيل، كنت في حالة قصوى من الذهول لأنني لم أفكـــر يوماً أننا سنرتبط بعلاقة ممتدة، أو أن علاقتنا ستكشف على الملأ.

"ما هي مشاريعك في الحياة" سألني يومها.

ما هي مشاريعي في الحياة؟

فكرت بهذا الأمر وأنا أغادر بيته في ذاك اليوم.

لم أكن مثله.

ليس لدي أهداف محددة في الحياة أناضل من أجلها. وليس عندي غايات أخطط لتنفيذها، لا أحلم بمهنة معينة، ولا أسعى وراء حلم بعيد.. هذه الحقائق واجهت بها ذاتي بلا مواربة دفعة واحدة وباعترافات متتالية لأنني اكتشفت أن كل ما أقوم به في حياتي كان يعوزه الشغف الحقيقي. دراستي "علم النفس" اخترتها لأن هند اختارتها ولأنني كنت أحب البقاء أنا وهند معاً. خطوبتي من كامل تمت تحت إلحاح جدتي.. ثم أنا.. أين كنت أنا وسط هذه الخيارات المصيرية..

قرار البدء في علاقتي مع محمدو، ثم انتهائها، هوايتي في تتبع حياة المشاهير والكتابة عنها، ثم الغوص في عالم الأنترنت والبحث فيه عن أمور أحببتها لكنني لم أفسح لها مجالاً في ذاتي...كما لو أنه حبا مخفيا عن الأعين لا أستطيع الجهر به.

* * *

أطفأت جهاز التلفزيون وقررت النزول من البيت والذهاب الى محل في الشارع المجاور يبيع سيديهات الأفلام الجديدة بسعر رخيص،أفلام مهربة يتم نسخها وبيعها على سيديهات قبل أن تعرض على شاشة السينما.

السيارات في الشوارع ترفع أعلام البرازيل، ألمانيا وإيطاليا ..

كنت أفكر في هذه الثورة التي تسببها مباريات كأس العالم بين الشبان والشابات.

هل صحيح بأننا جيل بلا أهداف واضحة، بلا غايات كبرى نسعى إليها؟

في الجامعة قال لي مرة د.عادل المحاضر في مادة "علم النفس العيادي" إن جيلنا أميركي تماماً في كل شيئ، بينما جيلهم أوروبي، قال إن جيلنا يقلد الأسلوب الأميركي في المعاش اليومي والسلوكي.

"شوفي كم كلمة اجنبية بتقوليها باليوم، شوفي الأكل اللي بتاكليه، والقهوة اللي بتشربيها.. كم مرة بالأسبوع بتاخدي وجبات سريعة، شوفي السينما، الأغاني، الأزياء، كل شي بحياتكم بتصدره أميركا وأنتوا بتستهلكوه.. على أيام جيلنا أوروبا كانت في الواجهة.. على الأقل أوروبا حضارة.. بس أميركا هيدي شو؟".

أفكر في سندويشات الفيلادلفيا والفاهيتا، في الهامبرغر والهوت دوغ، البطاطا (الفرنش فرايز) وصلصة الكاتشب والمايونيز، القهوة الأميركية والأكسبريسو، البيبسي ومشروبات الطاقة. كنت أفكر أيضاً بالصور الجميلة التي تملأ رأسي، بل حياتي كلها، وقتي الذي يمر سريعاً، السينما التي تنتجها هوليود، الأفلام التي أحبها وتمنحني اوقاتا من الفرح تتلاشى حتى ظهور فيلم آخر بالروعة نفسها ثم هناك الوجوه التي عشقت ملامحها والتي أبحث عن حكاياها عبر الأنترنت، وجوه وحكايا أتتبع مسار حياتها كي أشكل منها حكاية جديدة.

المحل مغلق، يضع لافتة أنه سيفتح بعد ساعة. فكـــرت بـــالتجول قليلاً في ضواحي المكان، أو السير حتى مطعم "خليفة" لأشتري سندويش فلافل، لكنني لم أجد في نفسي ميلاً لتناول الطعام.

سأعود إلى البيت اذن، في طريـــق العـــودة دخلـــت الى محـــل الأكسسوارات وأدوات التجميل الذي يقع بـــالقرب مـــن الكنيســـة، اشتريت قلم أحمر شفاه، وعقدا من حجر أزرق مزيف يشـــبه الفـــيروز، لكن لونه المشع الذي يشبه لوني السماء والبحر معا أشـــعرني بالبهجـــة، وتخيلت انعكاسه على قميصي الساتان البيج الذي أحضرته لي أمي مـــن دبي.

عبرت من أمام الكنيسة لانعطف نحو شـــارع بيتنـــا. بـــدت لي الكنيسة في هذا المساء غارقة في الصمت، لا يقطعه سوى زقزقة عصافير صغيرة تحلق فوق فضاء ساحتها الواسعة. قليلة هي الأيام التي سمعت فيها أجراس الكنيسة تتناهى إلى السمع، لعل أبرزها في ذاكرتي في ذلك الأحد المشمس منذ عامين تقريباً، حين زار المطران "بولس مطر" بلدة "حـــارة حريك" ليحتفل مع أبنائها بالذبيحة الإلهية، يومهـــا عرفـــت أن هـــذه الكنيسة هي كنيسة "ماريوسف"، حدث ذلك حين تسللت أنا ونجلا إلى الداخل لنستمع إلى القداس، كان المطران يصلي لرفع الظلم عن النـــاس في فلسطين والعراق، ثم دعا للمحبة بين المسلمين والمســـيحيين قـــائلاً: "اثبتوا يا أبناء حارة حريك على محبتكم لبعضكم البعض، واثبتوا علـــى إيمانكم بلبنان والمصير الواحد".

لكن الآحاد تتالت بعد ذلك ولم اسمع جرس الكنيسة، هل قُــرِع ولم اسمعه؟ أم إنه لم يُقرع؟

كانت جدتي تحكي في بعض الأحيان عن السكان المسيحيين الذين غادروا في الحرب الأهلية، انتقلوا إلى مناطق أخرى، فيما هاجر إلى حارة حريك وإلى الضاحية الجنوبية كلها مهاجرون من الجنوب وبعلبك.

* * *

اليوم هو الأحد.

حين استيقظت صباحا تذكرت أنني حلمت حلماً تكرر من قبل. كنت أسير في الشارع حافية القدمين، أركض وأركض على الأســفلت الأسود، الشارع يزداد عرضاً، وأنا ألهث من التعب، الشارع غير نظيف أبداً، على جانبيه قمامة وأتربة ووحول تلوثــه، أوراق محترقــة، علــب كرتونية فارغة، أعقاب سجائر مرمية بكثرة تشكل تلة صغيرة، زجاجات مكسورة، علب مثلجات مطعوجة، وفوق ذلك كله كان هنــاك جثــث قطط وكلاب متعفنة، أشيح بوجهي عنها كي لا أراها.. في نهاية الشارع تقف عمتي في منتصف الطريق تمارس العادة السرية، هي لا تراني أبــداً.. أنا أراها فقط من بعيد، أحس بالخجل. في الحلم أحس بالخجــل وعنــد الصحو أيضا..

كابوس عمتي و الشارع المتسخ تكرر أكثر من ثلاث مرات، وأنا أركض للهرب منه، وكلما نظرت ورائي أجد أن الشارع مازال في أوله والطريق يمتد أمامي.

تقول لي هند إن الشارع يشير الى حياتي، الشارع هو الدنيا، وأنا اركض كثيراً من دون هدف محدد لذا لا أتقدم إلا قليلاً.

لكن لماذا أكون حافية في الحلم؟ أكثر ما كان يضايقني أنني أسير حافية.

* * *

سأذهب لزيارة عمتي اليوم.

في السوبر ماركت، اشتريت لها فاكهة، دخان، وشوكولا. الشوارع شبه خالية صباح الأحد، وصلت بسرعة إلى المستشفى. صعدت إلى الطابق العلوي لأصطحب عمتي كي نجلس في الكافيتريا. وشوشتني الممرضة أن حالتها ليست على ما يرام. حين جلسنا في الكافتيريا طلبت أن أحضر لها عصير أناناس، كانت كما لو إنها غافية، تتكلم بصعوبة، عيناها تتحركان بثقل، فيما جفونها منتفخة، ووجهها شاحب وأزرق.

"اشتقتلك ندى، شو جبتيلي معك، بدي دخان وكفته". قالت وهي تأخذ كيس المشتروات من يدي.

قلت: "وأنا اشتقتلك كمان، في دخان بس ما جبت كفتة.. المرة الجاية".

"ايمتى بدك تاخديني على البيت، زهقانة هون". سألتني وعيناهــا تحدقان في الأرض ورأسها يميل إلى جانب كتفها الأيمن.

"ان شالله الأسبوع الجاي.. اذا كتبولك على زيارة".

تصمت هي.. انظر إليها طويلا، أتأمل شعرها البني المنكوش الذي تتخلله خصلات رمادية، أرغب لو أتمكن من النفاذ إلى عقلها لأعــرف الحقيقة، لأعرف كيف صار قدرها أن تعيش هنا.

غادرت المستشفى وأنا أعدها بالقدوم الأسبوع القادم.

دوار خفيف في مقدمة رأسي.

* * *

أرسلت لي هاديا رسالة على الخليوي، تطلب مني القدوم إلى بيتها لنشرب القهوة معا لأنها لن تذهب إلى العمل. كنت أحــس بالصــداع، وبرغبة في الهرب من بيتنا، ومن جهاز كمبيــوتري الــذي غالبــا مــا سأستسلم إلى اللجوء إليه، والبقاء أمام شاشته لساعات طويلة.

قالت لي هاديا ونحن نجلس في صالون بيتــهم الصــغير مكــررة حديثها السابق عن الوظيفة:

"لسه قدامك عشرين يوم، روحي قدمي الطلب وشوفي شو بيصير معك.. محاولة، مجرد محاولة مش رح تخسري شي".

– هاديا أنا الاشيا اللي بجمعها بأرشيفي بجمعها لأنه أنا بحب هيك، مــش علشان سبب معين.. يعني مش عم خطط لشي".

- بعرف متأكدة من هالشي بس ليه ما بتستفيدي من الموضوع، ليه مـــا بتحولي الهواية لعمل وهيك بتكوني عم تعملي شي بتحبيه".

"ما بعرف.. بخاف، ما بظن بيمشي الحال".

"جربي".

"أنا بكرة إجازة بروح معك إذا بدك".

"اوكي".

ارتفع صوت أم هاديا من المطبخ تنادي على ابنتها الصغرى نجوى لتشتري لها "كيلو بندورة علشان بدها تكمل الطبيخ".

نجوى التي لم تتجاوز الرابعة عشر من عمرها كانت تسمع نـــداء أمها ولا ترد تقف بثبات أمام شاشة التلفزيون تتابع حواراً لفنانة صاعدة أصدرت أول "فيديو كليب" لها.

يرتفع صوت الأم مرة أخرى أكثر قوة مكرراً النداء ذاته:

"ولي يا نجوى شو مش عم تسمعي قومي جيبيللي كيلو بنـــدورة من عند الخضرجي اللي بأول الشارع بدي كمل الطبخة قبل ما يجي بيك من المحل الساعة رح تصير خمسة وما خلصت الطبيخ لسه".

ترد نجوى ببرود: "أيه طيب جاية.."

ثم تتابع النظر الى مقتطفات من الفيديو كليب الجديد.

يدخل رامز الذي يصغر هاديا بثلاثة اعوام. في يده قميص أبيض يسألني بسرعة وهو يلتفت نحو أخته هاديا:

"كيفك ندى؟"

"منيحة الحمد لله".

يقول لهاديا:

"بدي تكويلي هيدا القميص قبل ما تنقطع الكهربا، سامعة أمك عم تتخانق مع حالها، ما في أطلب منها شي، ندى مش غريبة رح جيبلك المكواية لهون، ضربتين على السريع، لازم أنزل عندي موعد مع الشباب".

لم ينتظر الحصول على رد، أسرع بإحضار "المكواة" الصغيرة، وشرشف سميك وضعه عل الأرض كي تتم عليه عملية الكي.

– وين زين، بعده ما رجع؟

– زين نايم، نهاره ليل وليله نهار، هلق الشركة اللي عم يشتغل فيها صايرة تعلق الإعلانات بالليل، قال شو علشان الناس الصبح تتفاجئ بالإعلان إنه معلق".

– صار لي كم يوم ما شفت زين، كتير مشتاقتله.

– هو كمان مبارح سألني عنك، خبرته إنك رح تقدمي على الفضائية لإعداد البرامج، كتير انبسط".

كانت هاديا تتحدث معي وتقوم بضربات سريعة على قميص رامز.

دخلت أمها وفي يدها صينية عليها ثلاث فناجين من القهوة، رحبت بي وهي تضع الصينية، ثم انسحبت إلى الداخل لتعود وفي يدها "أرغيلتها" الصغيرة.

سألتها هاديا بعصبية:

– هلق معقول بدك تأرغلي هون..

أحسست بالحرج، ردت الأم بحدة أيضاً:

– وين بدك أقعد، يعني هالبيت في **300** غرفة، الغرفة اللي جوه نايم فيها خيك، والتانية هلق رح يجي بيك من المحل وينام فيها.

بدا لي وجه الأم حنطي اللون شديد البؤس وسط الصالون القـديم المتهالك الذي بهت لونه "الخمري" وصار ميالاً إلى لون "البطيخ" الفاتح، صور آيات قرآنية ودعاء "كميل" على الجدار، وإطار خشبي وضعت فيه آخر صورة لابنها حسين التُقطت له عندما كان عمره تسعة عشر عامـا أي قبل أشهر من وفاته. في الزاوية طاولة متوسطة الحجم لا تبين معالمهـا لأنها مختفية تماماً خلف غطاء من اللون البني، وضع عليها التلفزيون الذي يعتبر الشيئ الجديد فقط في الغرفة.

كنت أحس بتعاطف مع الأم وأنزعج من الأسلوب الذي تتعامل به هاديا معها. كانت حياة تلك المرأة سلسلة من النكبات تحاول الهرب منها بالتدخين والثرثرة وموجات التدين التي تأتيها بين مد وجزر. فالزوج فقد ساقه خلال الحرب منذ عشرين عاماً، وصار يتكل في معيشته على "محل" يبيع فيه المواد الغذائية من الأجبان والألبان والمعلبات،إلى الشـامبوهات والمبيدات الحشرية وبعض الأدوات المنزلية. أما مسؤلية الأبناء الخمسـة فكانت تقع على "أم حسين" زوجته وأم أولاده الخمسة.

تلك المرأة التي تجد عالمها الممتع في دخان "أرغيلتها"، والتي تنهمك في إعدادها مرتين او أكثر في اليوم، حسب قدوم الجارات في الصـــبح او العصر.

الابن الأكبر "حسين" مات في عام **1996** خلال أحداث قانا، كان في زيارة عند بيت عمه عندما سقط صاروخ كبير على البيت فتحول كل ما فيه إلى أشلاء. وبدلاً من أن يعود حسين إلى أسرته بعد يومين، لم يرجع منه سوى أشلائه التي جمعت في كيس أسود ليتم وضعها في قبر لتـــذرف الأم دموعها فوق ترابه.

لم تكن الأزمات المالية تنتهي في بيت هاديا، لأن مـــدخول المحـــل لم يكن يكفي لتغطية احتياجات الأسرة. "زين" توقف عن الدراســـة بعـــد التحاقه بالجامعة، كان مشتتا بين مساعدة أبيه عصـــراً في المحـــل، وبـــين التفكير في البحث عن عمل يؤمن له دخله الخاص. توقف عن الدراســـة وتنقل في عدة مهن، مندوب مبيعات لشركات تبيع العطور الرخيصـــة، الولاعات، والساعات والهدايا، ثم سائقاً لأحد الشخصيات المهمة، فيمـــا بعد ساعدته تلك الشخصية المهمة ليعمل مراقباً على إعلانات الطرقات. انسحبت الأم إلى المطبخ فقالت لي هاديا:

" شايفة الكرنفال المستمر اللي أنا عايشة فيه..أوف..أحيانا بـــدي نام ما بقدر نام...

قلت:

معلش شو بتعملي يعني.. أنا رح قوم هلق، بشوفك بكرة.

طيب بكرة على العاشرة برنللك على الانترفون، بتترلي لنروح عالمشوار..

دخلت أم هاديا، وبفضولية ربات البيوت العاطلات سوى عن تبادل الثرثرة سألتنا بحزم:

- لوين المشوار؟

ردت هاديا باقتضاب:

"ندى بدها تقدم على شغل وأنا رايحة معها"..

تتالت الأسئلة من جديد.. وين.. وكيف ومتى .. ثم انهمرت سلسلة من الأدعية بالتوفيق وحسن الحظ لأني "بستاهل كل خير".

في اليوم التالي ذهبنا أنا وهاديا لتقديم الطلب، استقبلنا الموظف بابتسامة آلية يكررها مع الجميع، ثم قدم لي أوراقا لكي أكتب فيها المعلومات التي تتعلق باختصاصي الجامعي، بمهنتي الحالية، وتفاصيل كثيرة أخرى من ضمنها قدرتي على السفر.

ابتسم لنا الموظف مرة أخرى ابتسامته المكررة، أخذ الأوراق مني،على وعد بالأتصال.

أحلام وكوابيس

مر أسبوع على آخر كابوس.

استيقظت هذه الليلة في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، كنت أفر راكضة بعيداً وإحساسا بالشلل يربط قدمي إلى السرير.

أنا وهند نسير معاً نخرج من السينما ثم نسير في شارع موازي للبحر نركض ونركض ثم فجأة ينقلب الطريق أمامنا الى غابة شائكة تحجب أشعة الشمس، ونحن نركض على أرض رملية. نقع، ثم نقف من جديد لنعاود الهرب، ثم فجأة أرفع رأسي الى أعلى أسمع صراخ أطفال معلقين على الشجر من أرجلهم، أطفال لا يتجاوز أعمارهم عاماً واحداً، وكلما سرنا أكثر تضاعف عدد الأشجار المعلق عليها الأطفال بل صارت جثث الأطفال تملأ جنبات الغابة أيضاً، وبين الأطفال الموتى أرى بنتا أكبر من بقية الأطفال في الثانية من عمرها ومازالت حية، أطلب من هند أن نأخذها معنا، أسحبها بسرعة ونتابع الركض، تضيق الغابة لتصير كالممر المعتم الذي لا يتسع إلا لمرور شخص واحد، نعبر بسرعة وأنا أسحب البنت في يدي والبنت تقول إنها عطشانة، ثم في نهاية الممر تتسع الغابة، تنفرج عن مساحة تشبه ملعب كرة قدم، وفي دائرة الاتساع تلك جنود كثيرين محملين بالسلاح يجلسون القرفصاء، وإلى جانبهم عدد من الأطفال الكبار قليلاً، يطلب الجنود من الأطفال العبور واحداً واحداً، وما إن يعبر أحد الاطفال حتى يسددون إليه طلقة في ساقه تجعله عاجزاً

عن السير فيسقط على الأرض ويصرخ من شدة الألم، يتكرر الأمر ذاته مع كل طفل، نشاهد عملية القتل ونحاول العودة إلى الوراء عبر الممر الضيق الذي يضيق أكثر بحيث لا نستطيع عبوره عرضاً أو طولاً.. نحاول الركض.. عبثاً.. كنا محاصرين ثلاثتنا.. أنا.. وهند.. والطفلة في يدي، ثم فجأة التفت حولي فأكون وحيدة، الطفلة غير موجودة، وهند ابتعدت عني وأنا أحاول الركض لكن ساقاي عاجزتان عن الحركة، شلل يربطهما إلى الأرض، وكما لو أنني التقط أنفاسي من ركض لم يحدث.

أستيقظت من الكابوس وإحساس بالثقل يشد ساقي إلى الأرض.

هلع يمسك أنفاسي.

افتح عيني.. أحدق في أثاث غرفتي، أشرب بعض الماء.

ما حدث كان مجرد كابوس، علي أن أهدأ قليلا،

تداهمني التباسات من أفكار متشابكة تشبه الغابة التي كنت فيها.

ينتابني إحساس بأنني لا شيئ وأنه لا مكان لي في هذا العالم.. لست سوى عابرة، حياتي كتلة فراغ صماء، ينقبض قلبي، وينفتح داخلي على هاوية سوداء مرعبة من الشؤم، اعتصار يلوكني قطعاً ثم يلفظني إلى العتمة.

إنه الليل..

أكثر ما يخيفني العتمة، والصمت..

كلاهما خانق.. ولا مفر لي..

بأي يقين أتشبث لأواصل الهرب واستمر بالحياة؟

ما هي الثوابت في حياتي التي تمدني بالمقاومة التي تدفعني للاستمرار، لا شيئ يقيني في أيامي أكثر من أشباح الليل المرعبة التي تزورني في ساعات العتمة .. وهاوية تفتح فوهتها وأنا أقف عند حافة تؤكد أن لا ثوابت عندي، فأعود إلى دوراني الفارغ حول ذاتي.. حولها، أعبث في فضاء افتراضي، أبتدع عوالم موازية تكبح جماح قلقي.

* * *

قررت مغادرة البيت. سأذهب للتسجيل في مدرسة لتعليم قيادة السيارات، وعدتني أمي بشراء سيارة صغيرة لي قبل سفرها هذه المرة.

ما إن خرجت من مدخل البناية إلى الشارع تسللت إلى أنفي رائحة " مناقيش زعتر" من فرن عبدو، أحسست بجوع خفيف، سأشتري منقوشة إن لم يكن هناك ازدحام. اقتربت من الفرن، وجدت "نجلا" تقف إلى جوار زوجها عبدو عند باب الفرن كان يبدو عليها التوتر، عبدو يتكلم بعصبية، اقتربت منهما قلت تخفيفا للتوتر:

"صباحو، شو بكن عند هالصبح.."

"اهلا ندى". قالها عبدو وهو يتحرك مبتعداً إلى داخل الفرن، أمسكتني نجلا من يدي وقالت:

"تعي نضهر من هون ندى .. كتير جو الفرن شوب".

"طيب كنت بدي جيب منقوشة".

وكما لو أنها لم تسمعني، أمسكتني من ذراعي برفق وسألتني "لوين رايحة؟"

"رايحة سجل بمدرسة تعليم سواقة السيارات".

"يعني ضروري تروحي هلق".

"لا مش ضروري هلق، ليه في شي.."

"إيه فيي.. بدي أحكي مع حدا رح طق".

أنت وين كنت رايحة قبل ما فوت أنا على الفرن"سألتها.

"كنت بدي زور بيت خيي علي وعبدو ما قبـــل يخلـــيني روح، مرت خيي عاملة صبحية اليوم، وعازميتني.. وما قبل.. بيقول إنه مـــرت خيي ما بتعجبه مزنطرة كتير.."

"بس هيك؟"

"إيه بس.. طيب وين بدك نروح هلق، وشو رح تقولي لعبدو؟".

"رح قلله إني رايحة معك تسجلي بمدرسة السواقة وبعدين منقعـــد بشي محل".

"وبلكي ما قبل؟"

"بيقبل.. مش رح يحكي شي اذا قلتله اني رايحة معك".

ابتعدت نجلا الى داخل المحل، اقتربت من قامة عبدو الضـــخمة، أحنى رأسه لتوشوشه في أذنيه لوجود بعض الزبائن قربه. يصل رأس نجلا الى نصف ذراع "عبدو"،بدت لي أكثر نحـــولا وصـــغرا وهـــي تقـــف بجواره،وترتفع على رؤوس أصابعها لتهمس في أذنه بعض العبارات، هز رأسه إلى أسفل إيماءة بالموافقة وكما لو إنه طلب منها أن لا تتأخر.

تزوجت "نجلا" من عبدو بعد انتهائها من الدراسة الثانوية، وفشل قصة "حب" مع شاب ثري كانت تأمل أنه سيحقق لها نقلــة اجتماعيــة تستحقها. لكن حين أعلن خطوبته على فتاة أخرى تراجعت ثقــة نجــلا بمؤهلاتها التي تعتمد في جزء كبير منها على شكلها الخارجي، ثم في خطوة جنونية وافقت على الزواج من ابن جيراننا "عبدو" عملا بنصيحة أمهــا القائلة "روحي للي بيحبك مش للي أنت بتحبيه".

كانت نجلا هشة الجسد، هشاشة لطيفة تضفي على ملامحها رقــة محببة بحيث تبدوعظامها عند الخصر لينة كما لو أنها وردة مــن الممكــن قطفها بسهولة لو وضعت يداً واحدة عند وسطها ثم جذبتها إليك، عيناها برموش كثيفة يختلط فيهما مزيج من اللونين الأخضر والعسلي، فيهمــا نظرة تنم عن شرود دائم ورغبة بالفرار، عظام وجنتيهــا بــارزة مثــل الفتيات المخصصات للإعلان عن مستحضرات التجميل، فمهــا كــبير قليلاً مقارنة مع حجم الوجه، شعرها فــاتح اللــون طويــل خصــلاته مقصوصة بشكل غير متساو، غالباً ما تتركه نجلا منفوشاً من غير تسريح. يتشدد "عبدو" في مراقبة ثياب نجلا، تعليماته واضحة المطلــوب ثيــاب واسعة وبأكمام طويلة تغطي كامل ذراعيها، كان قد طلب منها في بداية الزواج وضع "الحجاب" لكنها رفضت بشدة، فرضخ مكرها لقرارها. لم تنجب نجلا أطفالاً، ولم يكن يبدو عليها الضيق من ذلك.

زوجها عبدو الذي له جسد مصارع وقلب طفــل، كــان ابــن جيراننا أيضاً، وكان يحب "نجلا" منذ الطفولة، في حين هي لم تكن تصــده

ولا تبادله الحب، ظلت علاقتها به مناورة من شد وجذب، كانت تحتجز حبه كبديل تستخدمه في حالة الضرورة القصوى. وهذا ما حدث.

اوقفت "نجلا" سيارة وقالت للسائق:

– المنارة..عند "بالاس".

استغربت أنها لم تسألني عن رأيي في المكان الذي نتوجه اليه، حين صعدنا الى السيارة قالت لي:

"حابة روح على البحر".

قلت : "ايه بس هلق الدنيا شوب، البحر أحلى عند المسا، كنا نزلنا على الحمرا أحسن، وإذا ما بدك الحمرا على الداون تاون.

لم ترد "نجلا". ارتفع رنين هاتفها الخليوي. نظرت إلى الرقم ولم تجب. عاود الرنين، فأقفلت الخط، وحين رن مرة ثالثة كان السائق قد فتح جهاز الراديو بصوت مرتفع، حينها رددت باختصار قائلة: "بعد شوي بحكي معكن.."

نظرت إلي لترى ردة فعلي، لم أتكلم فقالت هي: "هيدي آلاء بنت خيي أمها بعتتها تتصل فيي لتشوفني ليه ما جيت".

"طب ليه ما خبرتيها".

"خلص.. شو بدي خبرها أنه عبدو ما بده إياني روح لعندهن"

لم أعلق. طلبت من السائق أن يخفض صوت الراديو عن الأناشيد الحماسية التي كان يستمع اليها.

"بتعرفني ندى شو أحلى شي بالنسبة لعبدو.."

شو؟

"إنه يتسمع على نشرات الاخبار، ويقعد يعد القتلى والجرحـــي في العراق من كلا الطرفين، بقصد العرب والجنود الاميركان، وبعدين يجمع ويطرح ليشوف مين مات اكتر".

داهمتني حالة من الضحك و"نجلا" تســتفيض في وصــف زوجهـــا وهوايته خاصة حين يكون والده في زيارته الأسبوعية عنـــدهم، حينـــها يدخل الأب والأبن في منافسة حول من استمع أكثر لنشرات الأخبـــار وكان مصيباً في إحصاء عدد القتلى والجرحى..

بعد أن جلسنا في مقهى "بالاس" أمام البحـــر، عـــاودني إحســـاس الجوع الذي نسيته مع حكايات "نجلا" طلبنا نسكافة وإفطار خفيـــف . ارتفع رنين هاتف "نجلا" مرة أخرى فقامت إلى الداخل قائلة إنها ستذهب الى الحمام.

عندما أحسست أنها تأخرت كثيراً، قمت من طاولتي سرت عـــدة خطوات انظر إلى أين ذهبت، وجدتها تقف عند مدخل المكان مع شـــاب في مثل سنها أو يكبرها ببضعة أعوام. بدت منهمكة في الحوار معه. عدت وجلست إلى الطاولة بانتظارها. حين عادت بدت ملامحها أكثر غموضـــاً وحذراً وهي تبرر غيابها بأنها التقت بأحد معارف "عبدو".

طفولة

كبرت أنا و"هاديا" و"زين" و"كامل" "ونجلا".

"هاديا" كانت في مثل سني، "زين" شقيقها يكبرنا بعامين أو ثلاثة، وكذلك "كامل" الذي كان صديق طفولة وصار خطيبي لمدة عام تقريباً.

"نجلا" كانت تصغرني أنا وهاديا بعدة أشهر.

جميعنا كنا نسكن في مجمع سكني واحد.

هاديا وزين من أقارب جدتي، وكذلك كامل ابن عمهم.

حدثت خطوبتي من "كامل" بسهولة. كل ما في الأمـــر أن أمـــه فاتحت "جدتي" صديقتها في الصبحيات وجلســـات تـــدخين الأرغيلـــة، عرضت عليها أن تتم خطوبتنا لأني "عاقلة ومهذبة وبنـــت نـــاس أوادم، ومش رح تلاقي أحسن مني لابنها ،ولإني ترباية ستي". ما يرادف عبـــارة مضمونة السير والسلوك.

قالت جدتي أنه الأفضل بالنسبة لوضعي أن أقبل بتلك الزيجة حتى إن كنت لا أحب "كامل". قالت لي بشكل مباشـــر وبصـــوت حنـــون ومتعاطف، نادراً ما تستخدم تلك النبرة، وكما لو أنها وجدت الضـــمان التام لمستقبلي.

"يا ستي مش يمكن بكرة تجي واحد تاني ما منعرفه، وأهلـــه مـــا يقبلوا فيكي .. رح يقولوا هيدي أمها وبيها مطلقين، لـــيش تطلقـــوا الله

وأعلم شو في". سكتت جدتي وتابعت بصوت كسير قائلة: "وأكيد كمان رح يعرفوا بحكاية عمتك رجاء".

* * *

الطفولة السعيدة وهم كبير.

وهم نستمر بالتساؤل عنه طوال مراحل ما بعد الطفولة.

في البداية كنت أفكر أن تعاستي الطفولية حدثت بسبب غياب أمي، كنت مقتنعة بهذا، لكن هاديا كانت تؤكد لي أنها هي أيضاً ترى طفولتها تعسة رغم وجود أمها وأبيها معهم، تقول لي هاديا، إن أي حرمان هو الذي يسبب التعاسة. حرمان العاطفة، المال، إحساس الفقد، الغياب، أشياء كثيرة تتضافر لتخلق تعاسة لا نعيها في وقتها بسبب جهلنا، ثم مع مرور الوقت نكتشف الفراغ الذي سببته.

في صغري كنت اتسلق شجرة التوت، عندما نذهب لزيارة أقارب جدتي في الجنوب، "التوتة الحمرا" كانت هدفاً دائماً لي لتسلقه، كنت أُقنع أولاد وبنات أقارب جدتي بأن نقوم بتسلق أغصان التوتة حتى نصل لأعلى غصن.

متعة الوصول لأعلى غصن كان بمثابة الطيران إلى أعلى، الانعتاق من رؤية الارض، وكل ما يربطني بها. عندما كنت في الثانية عشر، سقطت من أعلى التوتة وكسرت يدي، وظلت ملفوفة برباط الجبس ستة أشهر، وفي المدرسة كنت أذهب بيد يسرى مربوطة إلى عنقي، رغم

تفوقي في دروسي الذي لم يؤخره مرضي، إلا أنني كنت أحس بخجل كبير من نفسي، ومن بنطالي الكحلي، وبلوزتي الرمادية، وجاكيتي البرتقالي.

الفتيات تعاطفن معي وساعدنني في دروسي، صرن أكثر وداً معي وألفة، ورغم أن حادثة سقوطي هذه قد قربتني من بنات الصف إلا أنـــني منعت بتاتًا من تسلق أغصان "التوتة" التي دخلت لائحة الممنوعات.

في عمر الرابعة عشر تغير شكلي، زاد وزني كثيرا، أصـــبح **75** كيلو غراماً، بطول يصل الى **160**، كما ظهـــرت البثـــور في وجهـــي، وصارت بشرتي تشبه حبة الفريز محمرة ومليئة ببثور صغيرة..

في المدرسة أحس بالخجل من الألوان التي أرتديها، ومن ثيابي التي تشتريها جدتي لي من "البالة"، كانت تحتفظ بالثياب التي ترسلها أمي لأيام العيد والمناسبات. أحس بالخجل من أحذيتي مازالت لدي عقدة الحـــذاء حتى الآن. جدتي كانت تختار لي أحذية غريبة الشكل، كـــبيرة، مدببـــة، أقرب إلى أحذية الأولاد، يخضع اختيارها لها وفق صلابتها، إذ علـــي أن أمضي الموسم كله في هذا الحذاء. أنظر الى أحذية زميلاتي الـــتي تتميـــز بالجمال والأناقة، هل ينبغي إذا كان الحذاء جيداً أن يكون قبيحاً. لكنني لم أكن استطيع الاعتراض.

كان من المحظورات ارتداء الثياب الجديدة في أيام الدراسة، تقول لي: "أنتي رايحة تتعايقي بالتياب أو تتعلمي". لا يمكنني نسيان أنها يـــوم صنعت لي ثقباً في أذني لأضع الحلق استعانت بجارتنا "أم فؤاد" لتصـــنع لي ثقباً بالأبرة، وتضع في أذني خيطا مدة أسبوع.

تغير هذا الوضع عندما صارت أمي ترافقني في جــولات شــراء وتشتري لي ثيابا جديدة، لم تكن تسأل جدتي عما تفعله بالمبلغ الشــهري الذي ترسله لها إن كانت لا تنفقه علي إذن.. كان هناك اتفاق ضــمني بينهما على عدم السؤال. منعتني أمي من لبس البلوزة الجزريــة اللــون، والبنطلون الأسود القبيح، والحذاء ذو الكعب المدبب، قالت لي يومهــا إنني أبدو مثل "عاملات النظافة في المستشفيات".أجرت أمي تعــديلات جوهرية على مظهري،وتسريحة شعري،اصطحبتني في جولات شــراء الى أماكن لم أكن أعرف أنها موجودة في بيروت،معها اكتشفت مناطق أخرى خارج الضاحية الجنوبية،رأيت وجها آخر للمدينة لم أجرؤ يومــا علــى اكتشافه رغم معرفتي بوجوده.معها عرفــت محــلات (آـبي_ســي) في الأشرفية،ومحلات الثياب في شارع مارالياس، وشارع الحمرا.

لكن رغم كل ما تفعله أمي معي ظلت مشاعري نحوها متناقضة، ومبلبلة، طريقة العطاء التي اختارتها لم تكن كافية لتقليص المسافات بيننا. هناك فجوة لا تردم. كنت أخجل من نزع ثيابي أمامها، أو من الحــديث في أي موضوع حساس، لو حدث ذلك ينتابني إحساس الوجود في غابة شائكة، كلما توغلت في دخولي لها، لا يمكنني الخروج لذا كنت اتراجع بعد عدة أمتار.

* * *

حين صار عمري سبعة عشر عاما، بدأت بخسارة الوزن، كنــت أعرض جسدي لضربات قاسية من الحرمان، وأبتلع سراً علــى الريــق

حبوب تقطع الشهية وتقضي على رغبتي في أكل الشوكولا والشـــيبس والكرواسان. كنت قد كبرت وصار بإمكاني الاحتجـــاج علـــى قائمـــة الممنوعات التي تضعها جدتي. لكنني بقيت أكـــره أيـــام العيـــد، أكـــره المناسبات كلها التي يجتمع فيها الناس، أيام العيد تســـبب لي إحساســـاً بالقهر، كل ما كان يمكنني نسيانه خلال العام، يلح علي عندما يزورنـــا الناس أيام العيد ويظهرون شفقتهم علي، ممتدحين جدتي وحسن تربيتـــها لي. إحداهن تقول لها:

"والله يا حجة أنتي شفتي أيام أمر من زوم الزيتون، حرب وشحار وتعتير، وتربايتك للبنت اللي أمها تركتها وما سألت".

وكانت جدتي تهز رأسها بأسف، وتكسو ملامحها حكمة القديسين قبل ان تنطق كلماتها الحكيمة" إيه في الله.. ما بيضيع عنده شي".

ظللت أكره ليلة رأس السنة، التي يحتفل فيها الناس ببدء عـــام جديد، لكنني كنت أنام باكراً قبـــل الســـاعة 12 لأن جـــدتي تطفـــئ التلفزيون قائلة:

"قومي شوفي دروسك، أو نامي شوي، أحسن من أكـــل هـــالهوا الفاضي".

لكن دائما كان في داخلي حسرة على ليلة الميلاد لأنها ظلت ليلة مجهولة بالنسبة لي لا أعرف طقوسها، هذه الليلة التي يتم الاستعداد لهـــا منذ مطلع "ديسمير"حين تتزين المحلات بشجر الميلاد، ويحضـــر اللـــون

الأحمر في أزياء بابا نويل وكيسه وهداياه، ونبتة "قلب العاشق" الحمــراء الصغيرة، تلك النبتة التي أهديتها لحمدو، وظلت تزين شقته لأكثر مــن شهرين.

* * *

الآن أدرك أنه ليس من السهل على طفلــة أن تنســى زيــارات "مأوى العجزة". لكن رغم ذلك لم أحس بالحقد على أحد. لم أكره أمــي لأنها تركتني وعمري خمسة اعوام لتربيني جدتي، ولم أكره أبي الذي كــان يشرب مساء كل يوم ثلاثة كؤوس من العرق الوطني. أبي الذي أمضــى حياته كلها في ثلاثة أمور: "عمله في مكتب البريد، والصمت، وشــرب العرق".

كان يعود من عمله في الثالثة ظهراً، يدخل إلى حجرتــه يتنــاول الغذاء فيها، ثم ينام القيلولة، يستيقظ قبيل المغرب بقليل، يترل الى المقهى ليلعب الطاولة والورق، يعود مساءً ليتناول عشاءه ويشــرب كؤوســه الثلاثة. لم يكن يسكر، كل ما كان يفعله أن يخرج عن صــمته، العــرق يساعده على الكلام. وفي كثير من المرات كان يحكي قصته مــع أمــي، وكيف تركته.

كان يشرب العرق ويشكو لله هجر أمي قائلا:

"منها لربنا اللي كانت السبب .. ضلت تلعب بعقلها حتى خلتها تترك البيت وتتركك يا ندى .. كنا عايشين سوا مبســوطين .. وكــان زمانها هلق معك عم تربيكي".

عندما كبرت كنت أفكر ألهذا الحد أحبها؟

وبهدف دفعها للاتصال به كان يمنعني أحياناً من الذهاب لرؤيتها حين تأتي من السفر، كان يأمل أن تتصل به وتستعطفه ليسمح لها برؤيتي لكن كل ذلك لم يحدث أبداً لأن أمي تكتفي بالاتصال بجـــدتي وتســـوية وقت اللقاء بي.. خلال مرض أبي حين أصاب ظهره "ديسك" كان راتبه الشهري يذهب لنفقات العلاج، وكنا نعيش من المبلغ الذي ترسله أمـــي إلى جدتي، لذا لم يكن بمقدور جدتي أن تسيئ معاملتها وتخضع لنزوات أبي حين يحرضها على منعها من رؤيتي، كانت تصرخ في وجهه قائلة:

"والله أنت واحد مفتري، لو ما المصاري اللي عم تبعتهن ماجـــدة من وين كنا رح نعيش لم أنت مرضت، ما شفت كيف خيك مـــا ســـأل فينا، وأختك مرمية بالمستشفى بدها هالقد مصاري للعلاج".

في البداية لم أكن أعرف من يقصد أبي حين يقول "ضلت تلعـــب بعقلها" اتضح لي فيما بعد أن المعنية هي خالتي "وفاء"، خـــالتي الـــتي لم أتعرف إليها إلا حين صارت أمي تأتي من السفر وتصحبني لزيارة خالاتي وخالي الذين يسكنون في البقاع متوزعين ما بين "بعلبك" و"أبلح".

كنت أتخيل خالتي "وفاء" من كلام أبي عنها امرأة شريرة حقودة لكنني حين التقيت بها وجدت أمامي امرأة مقهـــورة حزينـــة تميـــل الى الصمت، مازالت موجوعة من حادثة قتل زوجها الغامضة والتي لم تعرف من ارتكبها.

تحكي لي أمي أن خالتي وفاء كانت منذ أول زواجها في أواخـــر السبعينات مستقرة في "أبو ظبي" كان زوجها يعمل مهنـــدس بتـــرول، تزوجها واصطحبها معه إلى هناك، كانا متحابين جداً أنجبا بنتين وولداً ثم

بعد سبعة أعوام من الزواج وفي أحد الصباحات وبعـــد أن نـــزل زوج خالتي الى العمل لم يمض على نزوله أقل من ساعة حتى جاء اتصال مجهول يقول لخالتي أن تترل الى أسفل المبنى لتنظر الى زوجها في أسفل العمـــارة. عند المدخل تماما وجدت زوجها جثة ملقاة على الأرض ودمه يـــترف، لا حياة فيه.

لم تعرف من الذي قتله أو لم قتل، لأن أقاويل كثيرة دارت حوله، البعض قال أنه عقد صفقات مشبوهة واختلف مـــع شـــركائه فقتلـــوه، وآخرون قالوا إنه كان على علاقة مع امرأة متزوجة وأن زوجها اكتشف العلاقة فقتلها وقتله، فيما رأي ثالث يقول إن الحكاية فيها "ثـــأر"، وإن قاتله رجع الى الضيعة في "بعلبك" وصرح أنه الفاعل انتقاماً لمقتل أخيـــه على يد والد زوج خالتي، لكن لم يؤكد أحد هذه الحكاية تماماً.

لم يكن هناك قصة تطغى على الأخرى إذ لكل قصة من القصص الثلاثة آراء مؤيدة ومعارضة، وفي الوقت الذي مالت أمي لتصديق الرأي الثاني القائل بوجود "إمرأة" أخرى وعلاقة غامضة في حياته، كان خـــالي "أنيس" ينفي تماماً هذا الاحتمال ليرجح الاحتمال الأول القائل بأنه عقد صفقة غامضة مع أحد التجار أدت إلى قتله. في الوقت الذي تنفي خالتي "وفاء" نفياً قاطعاً القصتين فلا هي تؤيد وجود "خيانة " مع امرأة أخرى لأنها أدرى بزوجها، ولا هي تشك للحظة أن من الممكن لذاك الـــزوج والأب الحنون أن يدخل مالاً حراماً إلى بيته.لكن خالتي أيضا نفت تمامـــاً معرفتها بوجود "ثأر" بين عائلته وأية عائلة أخرى.

لم تتزوج خالتي "وفاء" وتفرغت لتربية أولادها، وتحولــت مــع فجيعة الحزن والفقد إلى كتلة صامتة متحركة. لم تتغير إلا حين غزاها منذ أعوام قليلة شغف ديني قوي صار يدفعها للكلام حول الدين والخـــروج من البيت لحضور "دروس في الدين" أيضاً أو للمشاركة في أعمال الــبر والاحسان. ارتدت العباءة السوداء وأسدلت غطاء علــى الوجــه، ولم تكتف بذلك بل فرضت الأمر على ابنتها الصغرى مريم التي كانت تعيش معها، ثم فرضت على مريم أيضا خطوبة أحد الشبان المتدينين ابن إحدى صديقاتها اللواتي تعرفت إليهن في رحلة الحج وعقدت مع تلك الســيدة اتفاقاً على صفقة الزواج الغيابي بغض النظر عن رضى ابنتها.

* * *

شغف

"الشغف هو إحراق الحب القلب مع لذة يجدها"

"الشغاف غلاف القلب أو حبة القلب وسويداؤه"

ابن منظور

لسان العرب

"الشغف هو أن يبلغ الحب شغاف القلب"

ابن حزم

طوق الحمامة

مر أكثر من عام على نهاية قصتي مع محمدو.

لا أعرف حتى الآن السبب الحقيقي الذي دفعني بشغف نحوه، كنت أعرف أنه شغف مبتور وغير عاقل، لا يحمل سوى جموحي الشديد، رغم أن الخوف ساورني طويلاً قبل أن يتحطم رويدا رويدا. وقبل أن تقودني خطواتي إليه.

كان في الثلاثين من عمره، يعمل متدربا في الأمم المتحدة.

شيئ غامض يخلق بي حالة من الشغف لتأمل ملامحه الدقيقة المنحوتة على بشرته السوداء، وجهه المتعالي يشبه جلال الملوك. العينان مرسومتان ومسحوبتان بدقة في مساحة الوجه المثلث، أنف متوسط متوائم مع غلاظة الشفتين، عظام وجنتيه يغلفها طبقة رقيقة من اللحم يعلوها لمعان شفاف آسر.

ذاك الوجه كان يأخذني رغماً عني لأماكن مجهولة فأقع في أسره يوماً بعد يوم.

صرت أعرف أن ترددي على المركز الثقافي الفرنسي لم يكن فقط للقراءة وتقوية لغتي، كنت أراقبه وأعرف مواعيد قدومه.

لقاؤنا الأول حدث في مكتبة المركز، كنت أمسك برواية لكاتبة فرنسية، وكان هو يقف بمحاذاتي أمام الرف المقابل، يمسك بيده رواية للطاهر بن جلون بالفرنسية أيضاً، أشار لي بسبابته إلى غلاف الرواية التي أمسكها وقال بصوت شبه منخفض "رائعة".

بالنسبة لي لم يحدث انخطاف نحوه في تلك اللحظة، بدت ملامح بشرته السوداء غريبة بالنسبة لي، إنها المرة الأولى التي أتأمل فيها عن كثب وفي حديث موجه لي ملامح رجل أسود. وأنا أغادر المكان في اليوم ذاته تصادف خروجنا معاً من المركز، مشينا حتى أول الطريق، كان قد عرفني عن نفسه بأنه يعمل متدرباً في الأمم المتحدة، ويسكن في الأشرفية، ويعد أطروحة الماجستير في الجامعة الأميركية. يومها حين سار محمدو إلى جانبي بدأ إشعاع خفي ينبعث منه، إشعاع دافئ وحدي من الممكن أن أحس به. كان معتدل القوام، عضلاته بارزة برقة، لا تعلن عن رجولة فذة، بل عن ليونة ممزوجة بقوة جذابة، تبينت ذلك من فتحة قميصه التي تبرز عضلات صدره، ومن الأكمام التي طواها حتى منتصف ذراعه. لم تكن مقارنته مع كامل لصالح الأخير، كامل ذو الجسد النحيف حد التقوس، الهش الذي لا يوحي سوى بالضعف.

حدث هذا اللقاء قبل نهاية عامي الجامعي الثاني بثلاثة أشهر، أي في مطلع شهر فبراير، وظلت لقاءاتنا تبدو بظاهرها بلا موعــد وفي مــبنى المركز فقط.

لم يكن ما أحسه نحو محمدو يحمل أي تفسير منطقي يخضع للعقـــل، أحاول الفرار منه بالهرب من لقائه لكن ما إن ألمحه في البهو يسير كرمح مشدود ببطئ وكسل حتى تنتابني تلك الرعشة، وخفقة الســعادة الــتي تلفحني كنسمة أفريقية ساخنة.

يدرك ما أحسه نحوه من شغف، يقول إنه يرى انعكاس أحاسيســـي في عيني، أرى إحساسه بالنشوة يلمع في عينيه لأنه يسبب لي ذاك الخفقان المفاجئ.

لا تساعدنا اللغة على التواصل، ويظل الكلام قاصراً بيننـــا علـــى عبارات مركبة بين الفرنسية والإنجليزية والعربية. أقول له إنني أحس نحوه بحالة من "الشغف " ثم أترجمها وأنا أشير الى قلبي.

يبتسم، تبدو لي شفتاه كما لو إنهما مأخوذتان من وجوه التماثيـــل الأفريقية، تلك الأقنعة المصنوعة كتعويذة لطرد الأرواح الشريرة. أرغب أن ألمسهما، يبتعد عني قائلا: "المكان غير مناسب". أهز رأســـي بحركـــة أسف، أحاول أن أقول له إنني أحب أن أمر بأصابعي على شفتيه كما لو أني أرسمهما، لكنه يبتعد بهدوء وهو يحرك رأسه يومئ لي أن "ليس هنا".

يلح علي للذهاب إلى منزله، أرفض، يكرر الدعوة وهو يضم يديـــه إلى صدره قائلا بالفرنسية إنه يحتاجني بين ذراعيه وعلينا أن نستغل كـــل مساحات الزمن التي تسمح لنا بالبقاء معا، يخبرني أنه سيكون وحيداً طيلة

الأيام الثلاثة القادمة، أصمت، أرتجف وأنا أتخيل أنـني غـداً صـباحاً بمقدوري أن أكون معه وحده، من دون هذه الأعين الرقيبة الـتي ألمـح سخريتها لوجودي مع شاب أسود.

أختار ثياباً غامقة، بنطالاً أسود وبلوزة سوداء برسـومات بنيـة، أرتدي معطفا بنياً فوقهما، الألوان الغامقة غير لافتة للانتباه هكذا تقـول أمي. أسير باتجاه الشارع لأستقل تاكسي نحو المنطقة التي يسـكن بهـا. يطغى إحساس المغامرة وشغف لقائي به على خوفي من الـذهاب لبيـت مجهول، إلى شاب لم يتجاوز زمن معرفتي به أشهر قليلـة. قـال لي إنـه يسكن، في شقة صغيرة مع زميل له، أطوي ورقة العنوان في يدي، أجـزم لنفسي أن السائق لا يمكنه أن يلاحظ ارتباكي وهو مشغول بالحديث عن حركة السياحة في البلد، وعن الصفقات التي تتم مع السواح، ينتظر مني الرد أو التعليق لكني أتجاهله، فيتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة.

يومها، ما إن نزلت من السـيارة في منطقـة "الأشـرفية" حـتى أحسست بانفصال تام عن عالمي، عن بيتنا، عن جـدتي، وعـن كامـل تحديداً، تخيلت وجهه الصغير الذي يشبه وجوه الفئران البيضاء، أسـنانه الأرنبية، شعره الأشقر المشعث من بقائه لوقت طويل في ورشة البناء تحت أشعة الشمس والهواء، جسده النحيل الأبيض، ابتسامته الـتي تبـزغ في وجهه بسبب تفائله المبالغ به، كل هذه الأشياء الـتي تسـاندها طيبتـه الزائدة كانت تدفعني أحيانا للحنق عليه رغبة في تغييره ودفعه لرؤية العالم بشكل أكثر واقعية، لكنني أدركت أنه لن يتغير ورغـم ذلـك أتممـت خطوبتنا وأنا أعي تماماً ما فيه من مزايا وعيوب. أحياناً كنت أشعر أنـني

أشبهه في استسلامي للواقع ورضوخي لهذا الارتباط لاقتناعي بأن كامــل شاب طيب وهادئ ولن يتخلى عني لحبه وتعلقه الشــديد بي، لم أكــن أكترث كثيراً إن كانت هذه الصفات مجتمعة تكفي لتكوين علاقة زواج ناجحة. في أحيان أخرى كنت أحس أنني شريرة وأنه يستحق فتاة أكثــر طيبة وهدوءاً مني، فتاة تشبهه حقاً، ولا يمكن أن تذهب للقاء شاب آخر في شقته. كامل لا يمكنه تخيل وجودي في أحضان رجل غيره، تماماً كمــا لا يمكنه تفسير تحريضي له على أخوته حين يطلبون منه المال أو أي أمــر آخر أن هذا يقع تحت مسمى التحريض. كان يدافع عن مــواقفي أمــام عائلته قائلاً: "ندى بتخاف على مستقبلنا" أما أنا فلم يكن الهاجس المادي هو المحرك الفعلي بالنسبة لي كان أشد ما يزعجني هو نظرة إخوته له تلك النظرة الممزوجة بشيئ من الاستغلال والاستخفاف به رغم أنه أخــوهم الأكبر، الشاب المتفوق الذي تخرج من كلية الهندسة في جامعة بــيروت العربية، إلا أن تفوق كامل في الدراسة لم يجعله حذقاً في تعامله مع أمــور الحياة الواقعية.

كانوا يخافونني أكثر مما يخافونه، وفي حــال وجــودي في زيــارتهم يترددون في مداعبته أمامي لأنهم يعرفون جيداً سلاطة لساني واستعدادي للرد، واستعداده للدفاع عني،وتبني مواقفي مهما كانت.

خيالات علاقتي مع كامل مرت بي وأنا أنظــر لتجمــع البنايــات المرتفعة التي يسكن "محمدو" في أحد منها. عصف بداخلي مــزيج مــن الأحاسيس المركبة بين التعاطف والألفة، الغضب، وبعض الإلتزام نحــو كامل الذي يوحي لي بالأمان. لكن إحساس الأمــان لم يكــن مفضــلا

عندي، الإحساس الذي يشبه المياه الساخنة في حوض الاستحمام، والطعام المطهو على البخار، رائحة السبيرتو، والقفازات البيضاء التي كانت الممرضة ترتديها في "دار العجزة"، صوت جدتي وهي تنهرني أن لا أعود متأخرة عن الساعة الثامنة لأن الليل غير آمن، طلبها مني وأنا في الرابعة عشر أن لا أركب الدراجة مع حسام من دون أن تشرح السبب.. تاركة الأمر محض تساؤل بالنسبة لي. فكرة "الأمان" كانت تثير بي كل هذه التخيلات، ورغم ذلك ظللت محافظة على تلك الهالة المطلوبة مني. ربما ليقيني من الحاجة للبيت، وللماء الساخن، وللطعام الصحي النظيف، ربما لهذه الأسباب أيضاً تمت خطوبتي من كامل.

إحساسي وأنا أبحث عن البناية التي يسكن فيها "محمدو"، كان خالياً من أي شعور بالذنب أو تأنيب الضمير، ليس إيماناً مني أن الندم هو الخطأ الثاني الذي نرتكبه، ولا لقناعتي بقول كاتب لا أذكر اسمه إن التفكير بالذنب يقضي على اللذة التي ننتظرها. بل لأنني كنت أحس شعور المؤمن الذي عاش حياته في إيمان نقي وخالص من أي شائبة كبرى تعكر صفحته، لكنه في لحظة ما يقرر سراً اقتراف معصية وهو يدرك تماماً أنها معصية، لكنه لم يتمكن أبداً من مقاومة حلاوة الثمرة وطلاوة عسلها المنساب تحت قشرة وردية رقيقة. يعي المؤمن بعمق أنها خطيئته وحده وليس لكائن بشري أن يحاسبه عليها، يقرر في لحظة ما أن يمنح لحواسه متعة لم تعرفها من قبل حتى في غيبوبة الوجد.

لم أكن أتملق نفسي وأنا أصعد درجات السلم نحو الطابق الثالث، فأبرر وجودي هنا بالإدعاء أن كامل لم يكن مناسباً لي، أو أنني أستحق

رجلاً أفضل، أو أنه لا يهتم بأن يشتري لي الورود أو أن يذهب معي إلى السينما، كي نجلس معا نتابع الشاشة في الظلام، لم أنزلق في هذه التحليلات أبداً واعية بعمق أن التخلي عنه أمر صعب بالنسبة لي في تلك المرحلة، لأنه عندي كما البيت وجدتي، والسرير الأبيض، والماء الساخن، والوجبة الطازجة.

هذه الأشياء ليست مفضلة لدي لكن جميع من حولي يعرف ماذا يمكن أن يحدث لي لو أنني اغتسلت بمياه باردة، أو تناولت طعاماً غير صحي، من الممكن أن أمرض لأيام طويلة وأن تعتل صحتي لأسابيع.

لكن لو ترك الأمر لي لفضلت أن أستحم يومياً بمياه شديدة البرودة، وأن آكل من ذاك الطعام المقلي بالزيت والمغري بالتذوق، كنت اخترت أيضاً السهر طويلا خارج البيت لأنني أحب الليل، وأحب أن أشاهد وجه المدينة كيف يكون فيه. لكن الخوف والحذر وتذكر الحكايات التي تحكيها جدتي تجعلني أركن لفكرة الأمان. لأن المجازفة بالأكل في الخارج تؤدي بي إلى المرض، والمجازفة بالتأخر ليلاً ستشوه السمعة وتقود إلى نبذي اجتماعياً، وعلي أن أظل فتاة محترمة في شارعنا، وفي الجامعة وفي كل مكان أكون فيه.

هاتفته حين وصلت للطابق الأول كي يفتح لي الباب.

مدخل المبنى كان هادئاً وخالياً من الناس، حين صعدت زال عني قليلاً إحساس التوتر، أو خشية لقاء شخص يعرفني، كان هذا الهاجس أكثر ما يلح علي، كيف كنت سأبرر وجودي هناك. لكنني تأملت البناية قبل صعودي إليها، كان فيها عيادة طبيب، ومكتب محامي، كانت فكرة

الادعاء بالمرض هي أول فكرة طرأت على ذهني في حال حدوث أمر طارئ.

المساحة العريضة في الطابق الذي يحتوي على ستة شقق أشعرتني بالارتباك وأنا أفرد الورقة لأتأكد من رقم الشقة التي يسكن فيها، ورغم ضوء النهار إلا أن النور كان خافتاً، حتى المصابيح الكهربائية لم تكن مضاءة. وجهه الأسود الجميل برز لي ساكناً موارباً الباب بهدوء. بدا لي امتداداً للمساحة المعتمة التي تفصلني عدة أمتار عن شقته، سرت بسرعة لأدلف الى الداخل قبل أن ينفتح أحد الأبواب مبصراً حركتي المترددة.

ما أن دخلت حتى جذبني إلى صدره، بقيت ساكنة للحظات قبل أن أخلع معطفي التنكري وأنا أحرك يدي بطريقة تدل على الحر، ابتسم منسحباً إلى الداخل ثم عاد ومعه زجاجة من العصير وكوبين من الزجاج، تركهم على الطاولة ثم سحبني من يدي لأشاهد البيت. وكأنني تنبهت في تلك اللحظة لضرورة التأكد من وجودنا وحدنا في ذلك البيت المجهول بالنسبة لي. نظرت لثوان الى الصالة كان فيها كمبيوتر وتلفزيون وكتب ملقاة في أماكن مختلفة على الأرائك الثلاثة التي تملأ الحجرة. سرت معه الى المطبخ كان واسعاً ونظيفاً ذكرني بالمطابخ التي تظهر في برامج الأطفال، ثم عبر ممر ضيق قادني إلى حجرة مفتوحة يقابلها باب لحجرة مغلقة، أشار لي أنها حجرة رفيقه في السكن، ثم أدخلني إلى غرفته، كان فيها سرير عريض يحتل مساحة كبيرة من الغرفة، بجانبه دولاب قديم للملابس، ومقابل السرير تواليت متروك عليه بإهمال أشياؤه الخاصة، ساعة، زجاجة عطر، كريم للجسم، معطر للجو، أوراق صغيرة. لفت

انتباهي القناع الأفريقي المعلق فوق التواليت، ثم العقود الأفريقية المثبتة على جوانب المرآة، وعقود مصنوعة من ثمار الفواكه ومن أخشاب وأحجار لم أستطع تمييز نوعها.

أحدها كان طويلاً ومكوناً من قطع صغيرة ودائرية من العنبر، وتتدلى منه خمسة خيوط، كل خيط منها ينتهي برسم يختلف عن الآخر، كان فيه سمكة، ونبتة ذرة، وطائر صغير، هلال، وشكل آخر يشبه مرساة السفينة، أخبرني أنه يرمز للرياح. حين لمست العقد بيدي ووقفت قليلاً لأتأمله جذبه من مكانه ليضعه حول رقبتي، فرك حبيبات العنبر بيديه وهو يقربها من أنفي لأشمها، ثم راح يشرح لي رمز كل شكل من الخطوط الخمسة المتدلية منه، وأنها مجتمعة تعتبر تعويذة لإبعاد الشر، وجلب الخير والسعادة، ثم ختم كلامه قائلاً إنها معتقدات قديمة عند الأفارقة. لم أعلق كنت أحس وهو يضع العقد حول رقبتي كما لو إنني في طقس قبلي أزف فيه على قرع الطبول، كانت أصوات الرقصات الأفريقية حول النيران المشتعلة، ورائحة ثمار المانجو التي أسمع صوت ارتطامها على التراب الساخن تزكم أنفي وأنا أشده إلي، لأول مرة أقترب بلا وجل من شفتيه، أمام تلك المرآة المسورة بعقود لدرء أشباح الأذى.

كان كل ما بيننا يتم بهدوء، بلا كلام كثير، بيننا تواطؤ على وجود أحاسيس مشتركة لا نستطيع تجاهلها. ظللني إحساس بالاطمئنان وخيط حرية لذيذ كان يحركني فأتصرف بوعيي الخاص بعد أن تركت كل التعاليم المعقمة خارجاً. قلت له وأنا أنام على بطني، تاركة رأسي على الجزء الأعلى من ذراعه" أحس معك أنني بكامل براءتي".

بدت عبارتي بالنسبة له غريبة ومدهشة سألني بالإنكليزية" كيف؟" أحسست حينها بعجزي أمام اللغة، كان من الصعب أن أشرح له أحاسيسي بلغة أخرى غير العربية، تقلبت على ظهري وأنا أقول باختصار "لأنني أحس أنني أفعل ما أريده ". لم يعلق على عبارتي سوى بكلمة "جيد"، ثم أقترح علي أن يريني ألبوم صوره الخاص. كان يقلب الصور أمامي وأنا أفكر أن هذه العلاقة ستكون مختلفة تماماً لو كنت أخوضها مع شاب عربي.

اكتشفت في هذه التجربة أننا نمضي في علاقاتنا كثيرا من الوقت نتكلم فيها بأمور لا تتعلق بنا، ولا تهمنا، وفي أحسن الأحوال ليست إلا مناورات للشد والجذب خصوصاً بالنسبة للفتاة التي تجاهد في اللف والدوران لتؤكد للرجل الذي برفقته أنها ملتزمة تماماً بكل ما تعلمته، وأن خروجها عن حبال التقاليد يحدث لأول مرة معه، ويحدث هذا بسبب الحب. كان هذا السيناريو المكرر بين الفتيات، والمعروف مسبقاً بين الشبان صيغة اجتماعية متفق عليها ومسكوت عنها، إذ يستحيل على إحداهن أن تعترف بخوض علاقات أخرى.

صورة البنت الطويلة الممتلئة البيضاء ذات الشعر البني المتهدل على كتفيها التي ترتدي ثياب البحر، استوقفتني قبل أن يخبرني أي شيئ عنها، أشرت إليه بالسؤال، أجابني بالفرنسية إنها خطيبته، أحسست بغصة عابرة لكنني حاولت الابتسام وأنا أقول "جميلة"، ثم أبادره بالسؤال عن هويتها، قال لي إنها فرنسية.

لا أعرف لماذا حين حكى لي عن خطيبته يوم كنا في المركز، خمنت أنها ستكون من بلده، وأنها ربما من ذات القبيلة التي ينتمي إليها، لا أعرف لماذا لم أخمن أبداً أن تكون خطيبته فتاة فرنسية بيضاء.. يا لسذاجتي في معرفته، أدركت حينها مدى جهلي في الإلمام بتاريخه وأن حدود معرفتي به اقتصرت على أشياء من الممكن أن نعرفها عن أي غريب نلتقي به في رحلة سفر عابرة.. معلومات تنفع كعناوين عريضة للشخصية، لا كجغرافية سرية لخريطته النفسية. الاسم، البلد، العمر، المهنة، أشياء تفيد ضابط الجوازات أكثر مما تهم امرأة تحس بشغف نحو رجل ما. فجأة قمت من جانبه، جلست منتصبة الظهر، كنت أحدق في جسده الممدد أمامي بكامل لمعانه وتألقه، عضلات صدره بارزة، خصره ضيق، ذراعاه قويتان، طلبت منه أن ينقلب على بطنه أردت تأمل ظهره، بدا لي عاموده الفقري مستقيم جدا، رحت أتحسس بشرته اللامعة، أمر بأصابعي على ساقيه النحيلتين الخاليتين من الشعر، يتحرك بكسل، ينظر إلي بدهشة كما لو إنه لا يصدق أنني شغوفة به إلى هذا الحد. أقول له وأنا أمر بيدي على جبينه وصدغيه مشيرة الى القناع الأفريقي المعلق على جدار غرفته "وجهك يشبهه".

يبتسم، تبدو لي ملامحه طفولية، لا تتناسب عما يحكيه عن الأقنعة الافريقية قال لي إن القناع يمثل الفن القبلي، وإنه جزء من البحث عن وجه آخر، القناع له وظيفة خاصة في الطقوس الدينية. ويمكن أن يدخل القناع في أفريقيا في كل المجالات الاجتماعية والسياسية والدينية، وفي حفلات اللهو أيضاً، ويستعان به لأوقات مهمة كما في تلقين أسرار

الديانات القديمة، وطقوس الزواج والموت. وتستخدم الأقنعة في الحفلات الراقصة لكونها تمثل القوة الخلاقة للفنانين والراقصين الـــذين يكتســـبون بوضعها بعداً رمزياً. يتكلم ببطئ، يتحسس ظهري بتلكؤ مثير يمسح مـــن ذهني قبلات كامل السريعة التي تشعرني دائماً أنه علينا الانتهاء بسرعة.

يحكي عن المغنية والممثلة الاميركية ديانا روس، يفتح البوم صـــورها على جهاز كمبيوتره، ويختار أغنيتها المفضلة لديه:

"Take Me Higher".

ثم يخبرني أنه ينبغي علي مشاهدة فيلمها الرائع **"Lady Sings the Blues"**

يتصرف "محمدو" معي كما لو إنني باقية معه لوقت طويل، كمـــا لو إننا باقيان للأبد. لوهلة ما ينتابني الشك في عدم تلهفه، غموض ملامحه لا يساعدني مطلقاً على قراءة أفكاره، يبدو لي عصياً على التفكيك، وحل لغز أفكاره. مع كامل كنت أحس كما لو إنني قادرة على قراءة أية فكرة تعبر مخيلته مصادفة. لكنني لم أكن سعيدة بذلك. لذا انتهى كل شيئ بيننا كخطيبين ولم تظل إلا صلة القرابة التي وهنت جداً بعد مـــوت جـــدتي وأبي.

ست البنات

اشتريت ثياباً للبحر من محل "الالدورادو" في الحمـــرا، الأحـــد القادم سأذهب للمسبح الخاص بالنساء، إنها أول مـــرة أذهـــب فيهـــا للسباحة هذا الصيف. كان الوقت عصراً تابعت السير إلى آخر الشارع حتى وصلت إلى مكتبة "بيسان". لمحت "سوسو" تعـــبر شـــارع الحمـــرا الرئيسي، قادمة نحوي. في الجامعة كنا نناديها "سوسو" لأنها لم تكن تحب أن يناديها أحد باسمها الحقيقي "ست البنات"، وإن فعـــل تطلـــب منـــه مناداتها سوسو.

بعد تخرجنا من الجامعة اتفقنا على اللقاء أسبوعياً، كـــان عـــدد الفتيات في ذلك الاتفاق ثمان والشبان ثلاثة، لكن اللقـــاءات لم تســـتمر سوى خمس أو ست مرات وصارت تتناقص في عدد الأفراد والمرات إلى أن توقفت تماماً.

حين شاهدتني سوسو سلمت علي بحرارة وأخذتني على جانـــب الطريق، أخبرتني أنها تعمل موظفة في "شركة الكهرباء" تقول "هيـــدي وظيفة دبرلي أياها بابا" ثم انهمرت أسئلتها عن مايا وسعاد وهند وزيـــاد وكاميليا وهدى وعلي وموفق.. و.. و.. و..

إجاباتي كانت مختصرة لأني مثلها لم أكن أعرف الكـــثير عنـــهم، حكيت لها فقط عن أخبار هند وزياد، وأنهما يستعدان للزواج، وبعد أن

ذكـــرت الخـــبر تنطلـــق "سوســـو" مـــن جديـــد للســـؤال "كيـــف وليش..وايمتى..ومين فيهن اللي غير دينه.. ووين رح يتزوجوا؟"

ثم تفاجئ حين أقول لها "مدني.. رح يتزوجوا مدني".

تظهر "سوسو" دهشتها وبعض الامتعاض ثم تتمتم: "معقولة؟"

ينتهي اللقاء بيننا بالاتفاق على التواصل من جديد وعلى الاتصال ببقية المجموعة لعقد لقاءات ومواعيد جديدة.

أدرك أن لا شيئ أكثر من ذلك، سوسو لن تتصل وأنا لن أتصل، وسيظل كل ما قلناه مجرد كلام عابر انتهى على الرصيف.

كل منا صار له ايقاع مختلف عن الآخر..

ايقاع يومي لا يستطيع الآن تقاسمه مع الآخرين كما كان يفعـــل أيام الدراسة.

لكن من الثابت أيضاً بالنسبة لي أن هناك أزمة تواصل بين البشر، كنت أعرف مثلاً أنني لن أبادر بالاتصال مع "سوسو". صار من الأسهل القيام بمحادثة عبر الماسنجر على التواصل مع صديق قريـــب. علاقاتنـــا الإنسانية في هذا الوقت باتت حاضرة عبر الصوت سواء عبر الهـــاتف أو الكمبيوتر.نحن صرنا مختصرين الى صوت،مجرد صـــوت، الصـــوت هـــو الوسيلة الفعالة التي تبتسر وجودنا البشري بالنسبة للآخرين،وتجعلنا على تواصل معهم.

* * *

كانت ليلتي خالية من الكوابيس.

عند الساعة العاشرة صباحا اتصلت بابن عمي حسان وطلبت منه الذهاب معي إلى المستشفى لأحضر عمتي كي تمضي معي إجـازة آخـر الأسبوع، لم يمانع، قال: " نص ساعة وبكون عندك". يتكتم حسان على علاقته بي أمام أهله، لا يخبرهم عن زياراته لي، وعن صداقتنا القوية، كان بالنسبة لي كأخ صغير رغم طوله الفارع الذي يتجاوزني بما يقارب نصف متر مما يعطيه عمراً مضاعفاً يسمح للرائي بالظن أننا متحابان.

كان الطقس مشمساً باعتدال، الشمس في شهر حزيران تملـك سلطة مطلقة لإزعاج البشر بحرارتها القاسية، لكن عند الصباح كان هناك دفء وتوهج من دون حرارة خانقة، بإمكانك ملاحظة ذلك من وجوه الناس الصافية التي لا تنز عرقاً وشكوى من "الشوب اللي ما بينحمـل". قال حسان: "لسه ما شوبت منيح مش هيك، أو يمكن علشـان الـدنيا بعدها الصبح، بعدين معقولة إنت بدل ما تعزميني على فنجان قهوة على البحر بتاخديني من هالصبح على المستشفى لنجيب عمتك".

"عمتك أنت كمان شو نسيان".

"لا مش نسيان، أمري لله.."

سألته :"لوين قلت لأهلك أنك رايح؟"

"ما قلت.. بعد ما اتصلتي فيي نزلت، وقلتلهم راجع بعد شوي".

"يعني ما قلتلهم إنك جاي معي..كتير ذكي".

"هلق عمتك رح تقول، أول ما تشوف بيك؟".

"كيف فاتتني هيدي يا نانا، صح.. معك حق.. طيب إذا قلنا لها ما تخبر حدا بيمشي الحال؟"

"مش مضمون، عمتك ما بتعرف ايمتى بينقلب حالها.. مش رح اشرحلك أنا يعني".

"بتعرفي ندى.. زمان كنت فكر إنه عمتي رح تشفى بيوم من الأيام.. أحيانا أنا وصغير كنت قول يمكن أهلها ما اهتموا بعلاجها.. ويمكن.. ويمكن.. هلق ما عاد عندي أمل ابداً.."

"بتصدق.. أنا ما فكرت هيك أبدا.. أنا وصغيرة كانت ستي كل ما تعبت تاخدها على المستشفى تخليها شهر شهرين، وترجعها.. علشان هيك ما أجا ببالي إنها رح تشفى وتقعد معنا على طول متل كل الناس".

"شوف سواق التاكسي هيدا، يمكن يكون رايح هونيك عالمنطقة".

مد سائق التاكسي رأسه حين أشار له حسان بالتوقف قائلاً: "نزلة المدينة الرياضية من جوا عند المستشفى..".

"سرفيسين" قال السائق.

وهذا يعني أنه سيأخذ الأجرة مضاعفة، قبلنا، اختصاراً للوقت، وخوفاً من اشتداد لهيب الشمس، لكن يبدو أنه كان يفعل ذلك لنرفض إذ حين وافقنا بدا عليه الارتباك وراح يشرح خطة الطريق لباقي الركاب. ظاهرة سائق التاكسي المتكلم والفصيح عادية جداً في بيروت لأنه يحول سيارته إلى صالون متحرك يتبادل فيه الركاب آراءهم في السياسة والمجتمع والدين، وفي الأحداث العالمية، وآخر فيديو كليب في

السوق، وماذا فعلت هيفا وهبي، وبأية الفساتين ظهرت ومع من تشاجرت. ويمكنك أيضاً أن تعرف أخبار البلد، والسياحة، وهل هناك تغيرات حدثت عن العام الماضي. بسهولة يتم تبادل الآراء التي تصل الى حد الصدام خاصة في حال اختلاف الركاب وتضارب ميولهم السياسية والدينية. وفي حال كنت زائراً إلى بيروت ربما لا تزعجك هذه الظاهرة، إذ يتعامل معها البعض بلا مبالاة، فيما يتفاعل البعض الآخر مع سائق التاكسي وتقوم بين السائح والسائق خدمات متبادلة كأن يرشده الى مكان ما، أو ينصحه بالتوجه إلى منطقة دون غيرها. لكن في حال كنت ممن يستقل سيارات التاكسي يومياً فإن الزمن الذي تمضيه في الصالون المتحرك سيتحول الى زمن ضبابي ثقيل خاصة إذا صادفت سائق تاكسي يتبرع بإلقاء نصائحه الطبية ووصفاته العجيبة على كل راكب، وتتبدل أدواره بين طبيب ومصلح اجتماعي، ورجل سياسة وفاعل خير.

بعد صعودنا إلى التاكسي اقترب حسان من أذني قائلا "الله يكون بعونك يا بنت عمي على هالزيارة، أنا لو ما أنت ما بفكر روح هونيك أبداً".

"كيف ما بتفكر حرام عليك، يعني هي عمتي لوحدي.. هي عمتك كمان.. بلكي أنا مرضت مثلاً ما بتجي بتزورني".

سكت حسان ثم قال لي "سلامة قلبك ليه بتقولي هيك..؟"

لم أرد.

سألني فجأة بصوت منخفض:

برأيك عمتي مريضة مرض أو ساكن فيها شي شيطان.. أو معقول لأنها ما تزوجت، بتعرفي مرة سمعت جارتنا عم تقول هيك لأمي.. قالتلها هيدي أخت زوجك لازم تلاقوا لها زلمة تتزوجه وإلا رح تضل مدوخيتكن عند الحكما والمستشفيات".

"من وين بتجيب هالأفكار.. أيه مريضة وبس".

"يعني ما في احتمالات تانية لمرضها.. أنا مرة سمعت بيي وأمي بيقولوا إنها مرضت من بعد ما جدي ضربها ووقعت على الأرض على راسها وصارت تنزف، وبعدين صارت تهلوس".

فتحت الشباك..

الحر شديد، أحسست بضيق وبفقدان الأوكسجين من السيارة.

قلت: "كتير شوب مش هيك"

"ايه شوب".

حين وصلنا إلى المستشفى، جلس "حسان" في الكافتيريا، في الطابق الأرضي، وصعدت أنا الى الطابق الثاني،فتحت لي الباب ممرضة لم أرها من قبل بعد أن تأكدت من هويتي عبر شراعة الشباك الصغيرة. بدت لي متوسطة السن، حنطية اللون لكن بشرة وجهها سيئة، شعرها أسود غامق، وجهها متجهم. سألتني باقتضاب وهي تنظر للكيس الكبير في يدي:

- مين بدك؟

قلت:

زيارة عند المريضة رجاء عبد النور..

نظرت إلي نفس النظرة العابسة ثم عادت تسألني:

- شو بتكوني لها؟

- أنا بنت خيها.

في تلك اللحظة بدأت المريضات يظهرن من الغرف، وما إن شاهدن الباب مفتوح قليلاً حتى تسارعن للنظر الى الزائر، لحتني "سعدى" زميلة خالتي في الغرفة، بدأت تتمتم عبارات غير مفهومة من ضمنها:

"يي مسكينة.. مريضة رجاء.. تعبانة"

ترفع أصابع يدها من فوق رأس الممرضة وتقول لي "صار لها 3 أيام.. ويي شو بتحبك.. جبتيلها دخان، خلصت الدخان اللي معها كله، ما تنسي.."

ارتفع زعيق الممرضة الجديدة، أحسست بخوف وانكماش في أعصابي، قالت:

"ولي سعدى انقبري فوتي لجوه.. وانتي هناء على أوضتك بسرعة، يالله لشوف الكل لجوه".

إحدى المريضات، كانت أربعينية تجلس في الصالون الكبير ترتدي عباءة خضراء ثمينة وتضع ماكياجاً كاملاً تجلس في مواجهة التلفزيون، وكما لو إنها لم تسمع الصراخ، فقد استمرت في مراقبة أحداث المسلسل، صرخت فيها الممرضة: "يالله كريمة لجوه معهن". رفضت الدخول قائلة: "بدي شوف التلفزيون".

"ما في تلفزيون، كلكن لجوه، على غرفكن بسرعة، وبعد الغدا منشوف التلفزيون".

ابتعدت المريضة إلى الداخل، والتفتت الممرضة إلي قائلة:

"مين يا عيني قلتيلي بدك؟"

قلت: عمتي.. عمتي.. رجاء.."

قالت: "مين عمتك رجاء.. عنا ثلاثة أسمهن رجاء هون".

كان داخلي يرتعش تمتمت بسرعة:

"أيه أيه.. بقصد عمتي رجاء عبد النور".

"رجاء ممنوع عنها الزيارة عملولها جلسة كهربا مبارح، وهلق لتفيق بدها شي ثلاث أيام، تركيلها الغراض اللي جايبيتهن، وبس تفيق منعطيها أياهن".

ناولتها الكيس من دون أن انظر إلى وجهها مباشرة، وأسرعت بالنزول على الدرج الرخامي الأبيض الكبير، حين وصلت إلى أسفل، أحسسست كما لو إنني استعدت حريتي، إنها ذات الأحاسيس والانقباضات التي تنتابني كلما دخلت الى غرفة المريضات، كلما شممت رائحة جنونهن المنتشرة في هواء ذاك المكان.

– وين عمتي؟ وليه وشك أصفر هيك؟ سألني حسان.

– عمتي تعبانة، مانعين عنها الزيارات.. يالله نفل.

– اقعدي اشربي شي.. بجبلك عصير..

– لا.. ما بدي.. يالله قوم..

حين خرجنا من بوابة المستشفى كانت الشمس مستفزة جداً، اشعتها دفعت الدموع إلى عيني، أحسست بحرارة عالية وعطش شديد، قلت لحسان:

– بدي مي، عطشانة..

طيب انطريني لجيبلك..

عاد حسان إلى المستشفى ليشتري قنينة ماء صغيرة، كنت أقف وحدي في الشارع، وقفت سيارة قرب باب المستشفى، ونزل منها رجلان ضخمان يسير بينهما شاب صغير في السن لا يتجاوز العشرين، كان يصرخ ويرمي نفسه على الأرض، يسب ويشتم، إنه لا يريد الدخول الى المستشفى. أحكم الرجلان قبضتهما عليه وفي لمح البصر دخلوا ثلاثتهم إلى المستشفى وابتعدا عن الأنظار.

عاد حسان، ناولني قنينة الماء، كنت أحس بدوار إلى جانب العطش والحر، بدا حسان مضطرباً وهو يسمع صراخ المريض تمتم بصوت منخفض وهو يحرك فمه بأسف "مسكين.. شاب صغير".

قلت: "ايه حرام..مدري شو قصته".

"بتحبي نروح على شي محل... شو رأيك نتزل نقعد على البحر، بعد هالشوفات اللي شفناها اليوم".قال حسان.

لم تكن لدي أدنى رغبة بالكلام كثيراً، أجبته:

لازم أرجع على البيت.. يمكن تجي اليوم لعندي أم سمير.

ــ يبي.. بعدها بتجي لعندك.. حتى بعد موت ستي.. شو بتجي بتعمل عندك؟

ــ ما تحكي هيك، أنا كتير بحبها، بتسلى لما بتجي لعندي، بتقعد بتحكيلي خبريات ما بتخلص قديمة وجديدة.

أمي- أم سمير

تنتهي حكاية النبي يوسف عند أمي أم سمير عندما يتم إنقاذه من غياهب الجب .. كانت تروي الحكاية بمزيج من الإثارة والخيال خاصة في الفقرة الأخيرة التي توشك قبلها بالتوقف عن السرد، حين يصيب القافلة العطش فترمي الدلو في البئر ثم تسحبه لتجد فيه غلاماً شديد الحسن والجمال.. هنا تنتهي القصة بأن يذهب الصبي مع القافلة ولا نعرف بعد ذلك ماذا حدث له.

في كل زيارة لأمي أم سمير إلينا كانت تجمعنا حولها أنا وزين وهاديا وتحكي لنا ذات الحكايا التي لا نمل من سماعها. قصة البنت الصغيرة "جبينة"،التي دعتها أمها بهذا الاسم لشدة بياضها، ثم خطفها النور وأصيبت أمها بالعمى لكثرة ما ذرفت عليها من الدمع، ثم قصة "الغزالات الثلاث" اللواتي أرسلهن والدهن إلى السوق ليبعن غزلهن، وتختتم الحكايا بقصة النبي يوسف. القصة التي ظلت في مخيلتي حتى الصبا، وظللت أستمع إلى تلاوتها عبر جهاز التسجيل عندما كانت جدتي تستمع إليها في الصباحات الباكرة.

كانت أم سمير تأتي من الجنوب لزيارة جدتي، تحضر مع ابنها سمير كلما جاء الى بيروت، تصل محملة بأكياس من الضيعة فيها برغل وفريك وعدس،مرطبانات مربى وعسل من منحل ابنها.

أما كيف أخذت هذا الاسم فلا أعرف سوى أن أبي وعمتي كانا يناديالها (أمي _أم سمير) مع ألها لم تكن شقيقة جدتي، لكن جدتي تقول أن أم سمير قد شاركت في تربية أبي وعمي وعمتي، لا أعرف كيف حـــدث ذلك او متى، كما لا أعرف وجه القرابة بالتحديد إذ لشدة تداخلـــها لم أحفظ الصلة الأقرب لكن الأمر المؤكد ألها من بنات عمومتها وخالاقمـــا وكان يجمعها بجدتي علاقة وطيدة تعود لزمن طفولتهما. كانت امرأة قوية البنية ضخمة الجثة، طويلة وعريضة، تشبه جدتي في ردود الأفعال وبعض التصرفات، إلا ألها كانت أكثر رقة منها، وكانت أيضا مثل جدتي أرملـــة تفرغت لتربية أولادها منذ سنوات الشباب. استمرت صداقتهما طيلـــة هذه الأعوام، صداقة متينة تجمعهما في الأفراح والأحزان، ثم عندما ماتت جدتي ظلت أم سمير تأتي لزيارتنا بين حين وآخر، تبقى طـــوال اليـــوم أو تبيت ليلة وتغادر عند الصباح، وخلال ساعات بقائها كانت تبادر للقيام بكل ما كانت تقوم به جدتي من مهام مترلية صعبة، تشمل الطبخ وإعداد الكبة والتبولة ومغمور الباذنجان والملوخية وسائر المأكولات التي تـــدرك أنني لن أقوم بإعدادها أبداً.

كان وجود أم سمير في حياة جدتي يجعلها على صلة بضـــيعتها في الجنوب، هكذا تظل متواصلة مع أقارها ومعارفها وجيرالها، عبر سمـــا ع

أخبارهم وزيارتهم في أيام الصيف، وفي الأعياد، وعند حدوث أمر عاجل من فرح وحزن.

لم أكن أرى في جدتي سوى امرأة قوية، العواطف الإنسانية عندها تأتي في الدرجة الثالثة بعد العقل والمال. كانت تحب أن تدلل نفسها، كما تحب الظهور كزعيمة أمام جاراتها ومعارفها وأقاربها. وفي معظم الجلسات تكون "جدتي" سيدة الموقف بلا منازع خاصة حين يكون دورها في "الصبحية"، حيث تجبر كل جارة من اللواتي يشربن الأراغيل باحضار أرغيلتها والمعسل الذي تشربه، تقول لهن ما بين الهزل والجد وهي تضرب على صدرها "وأنا علي المكان والفحمات".

لم تتميز جدتي بشخصيتها القوية فقط بل بجمالها الخارجي أيضا، استغرب جداً كيف أن عوامل الزمن لم تفعل معها أفعالا قوية مثل التي أراها عند سائر النساء. جسدها ظل متماسكا حتى لحظة موتها. بشرتها ناصعة البياض، متوسطة القامة أميل إلى القصر منها إلى الطول، ممتلئة مع بدانة قليلة، ملامح وجهها تشبه رغيف خبز كبير أبيض ومحمر عند الوجنتين، عيناها سوداوتان أما شعرها فكان بنياً قاتماً تعقصه إلى الخلف دوماً.

ورغم شخصيتها المتسلطة إلا أنها كانت محبوبة بين الجارات، كانت مثل المعالج النفسي بالنسبة إليهن خاصة عندما تجلس مع كل واحدة على انفراد وتسهب في إعطاء النصائح والوصفات، خاصة في جلسات الصبحيات اليومية المتبادلة بين الجارات وفق برنامج محدد،

كانت جدتي تقرأ لهن الطالع، تفسر الأحلام، وتقوم بإجراء الاستخارات عن الأعمال التي يطلبن منها الاستخارة حولها.

تحب جدتي أن تحس أنها مهمة ومحاطة بكثير من الناس، ومن أجل إشباع هذا الأحساس عندها نظمت هذه اللقاءات والمواعيد اليومية بينها وبين الجارات والصديقات وبين أقاربها القريبين منهم والبعاد. مواعيد لم تكن تختل إلا في حدوث طارئ قوي. بالإضافة إلى ذلك فقد كانت تحب المشاركة في كافة المناسبات الاجتماعية من فرح وحزن، زفاف وطلاق، ولادة وموت..

أكثر ما كان يدهشني فى مخططاتها تلك أنها لم تكن تبذل جهداسواء كان مادياً أو معنوياً، معظم هداياها ارتجالية، إيشارب، منديل، قميص نوم حصلت عليه في عيد الأم، أو في مناسبة أخرى ولم يعجبها، فتهديه لإحداهن، قنينة زيت زيتون، أو مرطبان عسل من أم سمير تهديه لامرأة وضعت طفلا بحجة أنه يدر الحليب ..هكذا..

لم أكن أحس أنها تتعب من تلك الاستقبالات التي كانت تجبرني على المشاركة بها، فأخرج منها مع إحساس قاتل بصداع أبدي.

* * *

بين أمي التي أنجبتني وجدتي التي ربتني لا يوجد أي شبه.

في الوقت الذي تبدو فيه الأولى امرأة رقيقة وهشة فيها ضعف أنثوي مولود معها، وقابلية واضحة لأن تتعرض للخداع، كانت جدتي

امرأة لا تقهر تتمتع بسلطة ذكورية تطغى على سلوكها، سلطة تغلفهـا بدهاء أنثوي تستفيد منه في تحويل مواقف الحياة كلها من الضد إلى المع.

ربما لا يجدر بي المقارنة بينهما أبداً. كيف أقارن حماة وزوجة ابنها. معادلة غريبة، لكنني أقوم بها لأنني عشت بينهما، كما لو إن لي أمين.

لم أفهم أيضا كيف كانت كل واحدة منهما تكِّن إعجاباً باطنياً بالأخرى، إعجاباً لا يلاحظه أحد غيري،أظن أنه تكون من تضادهما.

أمي تنظر إلى جدتي (حماها) على أنها امرأة قوية صـمدت أمـام مصائب الزمن ونكباته وربت أولادها وحيدة، وتمكنـت مـن إحكـام القبض على أفراد عائلتها جميعاً. ثم الأهم أنها تمكنت من تربيتي ورعايتي، وإن كان اعتماداً على مبلغ شهري ترسله لها تحـت مسـمى "نفقـاتي الخاصة". نفقات لم أكن أنفقها، وبعد موت جدتي تم اكتشاف مبلـغ لا يستهان به من المال في البنك، تم تقسيمه بـين أولادهـا، أبي، وعمـي، وعمتي رجاء.

جدتي لم تكن تنكر في جلساتها الحميمة مع (أم سمـير) أن أمـي احسنت التصرف بقرارها الزواج والسفر بعد طلاقها من أبي، كمـا لم تكن تنكر جمال أمي الطبيعي وتناسق جسدها. فأسمعها تقول لام سمير:

"برافو عليها ماجدة، منيح اللي تركته، مـش ابـني بـس مـا بينحمل.. ولا بينطاق.. والله لو البيت بيضرب بيقلب بيضـل نـايم ولا همه.. وكله على جنب وأنه بيجيب معه البلا الأزرق اللي بيشربه.. بقلله

حرام عليك، أنا ست مصلية وحاجة بيت الله.. لمين كانت بدها تقعد ماجدة لهالبنت.. بتربى كيف ما كان".

لكن جدتي تنعطف للحديث عن النعيم والثراء الذي تعيش فيه أمي، وبالنسبة لها هنا بؤرة الحدث الرئيسية والمهمة، إذ إنها لم تكن لتقول عنها كل ذلك لو كانت أمي متزوجة من رجل فقير، ولا تحتكم على المال.

"لو تشوفيها يا أم سمير سنة الماضية لما اجت تاخد البنت... ما بتعرفيها، معها سيارة بيضا مرسيدس وشوفير، ولو تشوفي الجخ ولا كأنها ممثلة سينما.. بس لا والله ماجدة حلوة بطبيعتها".

ثم بعد هذا الحديث كله تعود جدتي لتنفي كل ما قالته سابقاً مؤكدة تعاسة أمي في حياتها قائلة:

"بس شو بدك بكل ها لحكي، ما في شي بيعوض بعد بنتها عنها، وحسرتها من القلق عليها، وهيدي بنت بالنتيجة مش ولد".

في طفولتي كنت استمع لحوارات جدتي وأبكي في العتمة.وفي المدرسة كنت أحس بالضآلة حين تطلب مني المدرسة قدوم ولي أمري.الفتيات يسألنني "وين أمك،ليه ما بتجي عالمدرسة؟".لا أرد،أنطوي داخل شرنقتي.

كابوس

كانت جدتي تقول عن الكوابيس إنها من الشيطان لإخافة الناس. وإنه عليَ النفث يميناً ويساراً حينما تداهمني متمتة "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

الكابوس ذاته يتكرر بتركيبات مختلفة.

عمتي تركض في الشارع بشعر منكوش، وأنا أركـــض خلفهـــا، ثيابي ملوثة بأتربة ووحول بلون الصدأ، خلفي سواد وأمامي ســـواد، في الشارع، وفي السماء. وهي تقهقه مولولة ثم تبتعد بعيداً. ثم أرى نفســـي كما لو إنني صرت هي.

أنا المنكوشة الشعر التي أولول وأصرخ.

وجوه متعددة لكابوس واحد.

تحت عيني سواد. المرآة تظهر آثار فزعي.

كوابيس عمتي ليس لها موعد، وليست مرتبطة بزياراتي لها، أحياناً عندما أغيب عنها، تأتيني كوابيسها بإلحاح كما لو إنها تطالبني بالزيارة.

أسحب نفسي من تحت الغطاء بصعوبة، إرهاق يسكن عضلاتي.

أقف تحت الماء الكثيف البارد، علَني أنبه أعصابي، وأطرد أشـــباح الليل التي سكنت مساماتي.

يسري بي خدر المياه الباردة.

مخيلتي تعيد تركيب الحلم مع إضافات مختلفة، وهواجس مرعبة عن جينات تخزن في خلاياي المرض نفسه.

لو مرضت أنا من سيأتي لزيارتي؟

لو أصابني الجنون، لو صرت مثل عمتي من سيهتم لأمري؟ من سيعتني بي؟

أحاول تهدئة نفسي بالقول أن حالة عمتي مختلفة، وأنها مرضت لأسباب مجهولة، وأنه من غير المحتمل أن تتكرر ذات الأسباب في حياتي، إذ ليس من المعقول أن أعيش كل هذا الرعب مع كل كابوس أرى نفسي فيه أتحول الى عمتي.

أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وأهمس في سري أن كل ما رأيته ليس إلا كابوساً عابراً.

أنشف جسدي بمنشفة كبيرة بيضاء.

على ذراعي اليسرى آثار أظافري الخمسة مغروسة في اللحم. في ليال أخرى كنت أستيقظ فأجد أظافري مغروسة في باطن كفي، كما لو إن أثلاماً صغيرة تنبش في لحم اليد، أفكر ماذا لو لم أصحى من الكابوس، ماذا لو ظلت أظافري تنغرس في لحمي أكثر وأكثر حتى سيلان الدم؟

ماذا لو كان الكابوس القادم يتكون من أنني سأقوم بخدش وجهي أو رقبتي، بالضغط عميقاً على نقطة ندى الحياة وإدمائها.

أضع الماء على النار، أجهز في فنجاني الأبيض ــ المرسوم عليه أشكال مختلفة لدبب الباندا ــ مزيجاً من النسكافة والحليب المجفف وملعقة من السكر وقليلا من الماء البارد. أبدأ بتحريكه بقوة، الملعقة

تصدر أصواتا مرتفعة، أزيد الضربات، أكثر فأكثر،وكلما ارتفع صـــوت المعدن في الفنجان، وتحول المزيج الى قوام كريمي متماســـك أحسســـت بثباتي على الأرض، وبقدرتي على تغيير الأشياء.

مدار القهوة يبدأ يومي معه، ومع تفقد قدرتي على اختبار متعـــة حواسي الغافية.

أصب الماء الساخن في الفنجان حتى امتلائه، آخذ مـــن خزانـــة المطبخ علبة بسكويت دايجيستف، أسير من الممر المســـتطيل إلى حجـــرة الجلوس حيث التلفزيون الذي اتركه يعمل طوال الليل بصوت منخفض، لئلا أتنصت للصمت الذي يغرق البيت فيه منذ ساعات المساء الأولى.

رائحة قهوتي الممزوجة بالحليب، تعيدني إلى الواقع أكثـــر، لـــون الرغوة البنية الفاتحة تبعث نشوة خفيفة داخلي، أمسك الفنجان بيـــدي اليمنى، سخونته تلامس أصابعي الرطبة، متعرقة قليلا، عرق بارد، أخشى انزلاق الفنجان من يدي، أمسكه بكلتا يدي، أضـــعه علـــى الطاولـــة الصغيرة. أنشف يدي بمنديل ورقي، وأغمس قطعة البسكويت في كوب القهوة، أسحبها سريعا إلى فمي قبل أن تتشـــبع بالســـائل وتســـقط في الكوب. آخذ رشفتين من الفنجان قبل البدء بجولة الصباح على القنوات الفضائية.

سكون غامض في البيت، وكما لو إن الأشباح لم ترحـــل بعـــد وتجلس معي في ذات الغرفة، كما لو إنها تتأملني، وترغـــب مشـــاركتي

القهوة، لماذا تظل صامتة؟ لماذا لا تكشف عن هويتها وأسمائها؟ لماذا لا تحكي عن سبب قدومها لزيارتي بين حين وآخر؟

أرفع صوت التلفزيون عالياً جداً، فيديو كليب لفنان لا أعرف اسمه، أخبار ضحايا انفجارات في العراق على قناة الجزيرة، الشيف رمزي يعد وجباته الشهية، هيفا وهبي تغني "بوس الواوا"، مسلسل مكسيكي على قناة المسلسلات، وفيلم "الحب الضائع" على إحدى قنوات الأفلام. أتوقف عن تقليب القنوات أمام مشهد سعاد حسني ورشدي أباظة وهما متعانقان بجوار المدفأة، مشهد حسي بامتياز، يبعد تفكيري عن الأشباح التي تسكن بيتنا، تتحرك خيالاتي نحو ذاك الشغف الجارف الذي دفع بطلة الفيلم للدخول بعلاقة غرام مع زوج صديقتها الوحيدة، إنها المرة الثالثة التي أشاهده فيها خلال عامين، وفي كل مرة أقاربه من زاوية مختلفة. أفتح جزءاً من النافذة، يدخل إلى الغرفة ضوء ساطع وأصوات الشارع تبدو أكثر وضوحاً. تربيت في هذا البيت بين جدة قوية، وعمة شبه مجنونة، وأب صامت.

في لحظات وحدتي، في أيام العيد، وفي الصباح الباكر، لطالما تمنيت لو كانت أمي معي، لو كانت علاقتي بها أكثر عمقاً من زياراتها الصيفية التي تحضر لي فيها ثياباً وأحذية، وحقائب من آخر الموضات. وتصطحبني في نزهات ورحلات لنطوف الجبل والشمال والجنوب مدة أسبوعين قبل أن يأتي زوجها وولديها وتنشغل بهما.

لو كانت علاقتي بها أكثر عمقاً من مكالمات هاتفية نصف أسبوعية تنتهي دائما بعبارة:

"يا تقبريني يا ندى، انتبهي على حالك، وعلى دروسك يا إمي، ما بدي وصيكي، دروسك عندي أهم شي، علشان تتخرجي من الجامعة، وتجي تشتغلي وتعيشي معي هون".

لو كانت علاقتي بها غير ذلك، ربما كنت حكيت لها عن محمدو، وعن حنيني له، وخوفي من الارتباط به. لكن المسافة التي تفصلها عني، إيقاع حياتها المختلف، لم يكن ليساعدني أبداً على البوح.

بعد سفرها وزواجها، ثم إنجابها ولدين، افتتح لها زوجها محلا لبيع التحف القديمة، اللوحات، والمطرزات اليدوية الثمينة التي كانت تستوردها من شرق آسيا، صار لها دخلها الخاص، لذا استمرت في إرسال المال لي بلا قيود عليها. أخذتني لزيارتها مرة واحدة عندما كنت في الثالثة عشر من عمري، في تلك المرة عرفت أن أمي لم تفصح عن وجودي في مجتمعها الجديد، لأنها كانت تبقيني معظم الأحيان في المنزل، أو نخرج معاً وحدنا إلى مدينة الألعاب، أو إلى "بيتزا هت" و"كانتاكي" لتناول وجبة سريعة، وعندما التقت ذات مرة بإحدى معارفها أو قريبات زوجها عرفت عني بأني ابنة أختها الموجودة الآن في ضيافتها. هل ظنت أمي أنني لم أسمعها وهي تنكر بنوتها لي؟

حينها كان ولديها، أي أخواي في الثامنة وفي العاشرة من العمر، حدث بيني وبينهما نفور منذ تلك الزيارة التي استمرت أسبوعين، ربما

كانا يشعران بأنني آخذ أمهما منهما، كما شعرت أنا دائما بأن أمي مأخوذة مني. هذا التنافر بيني وبينهما، ظل موجوداً بلا سبب واضح، كانا يتعاملان معي ضمن إطار الواجب والأمر الواقع، وكنت لا ارتبط معهما بأية مشاعر أخوة حقيقية، كنت أحس نحو زين وهاديا برباط أوثق من رباط الدم الذي يجمعني بهما.

مازال البيت على حاله منذ وفاة جدتي، لم أغير مكان أي شيئ، جهاز التسجيل الذي كانت تضعه قرب التلفزيون وتستمع من خلاله لآيات القرآن مازال في مكانه، لم أفكر بنقله الى غرفتي أبداً، رغم طلبي منها ذلك وهي حية.

طوال حياة جدتي لم أرها مشغولة أبداً بتغيير الأثاث، أو بنقله أو استبداله، كانت تنهمك فقط في التنظيف والتلميع بتحريك الأشياء من مكانها وإعادتها إلى ذات الأماكن، كما لو أن الأشياء منذ الأزل وجدت في بيتها على هذا الشكل وستبقى، ربما لأن جدتي لم تنتقل إلى بيوت أخرى منذ انتقالها بعد موت جدي من الجنوب إلى بيروت لتحيا مع أولادها، أبي وعمي سامح وعمتي رجاء، رغم كل الحروب التي مرت والتي عاصرتها جدتي والتي لم أشهدها أنا، فإن أجزاء من بيتنا كانت تتهدم أو تحترق، فيعاد بناؤها وترميمها، ويعاد وضع الأشياء مكانها. لم أعرف بيتاً آخراً لي غير هذا البيت، البيت الذي سكنته مع أمي وأبي قرب دوار المطار لا أذكره بوضوح، الآن أذكر الشارع فقط، ولا أذكر تفاصيل البيت الداخلية، حتى في العام الذي سبق انفصالهما، كنت مقيمة

دائمة عند جدتي، هي التي كانت تصطحبني إلى المدرسة، وتقوم بإجراءات التسجيل، وكل التفاصيل الأخرى التي تتعلق بحياتي اليومية، أنا الطفلة الصغيرة التي لم أفقد والديَ، لكنني عشت كما لو إنهما غير موجودين.

اختلفت الصباحات بعد موت جدتي، صار صوت التلفزيون يرتفع بدل جهاز التسجيل الذي يتلو سورة طه أو يوسف لمدة ربع ساعة عند مطلع كل صبح، صرت أشرب النسكافة وآكل البسكويت بدل تناول فطور منوع من اللبنة والجبنة البلغارية أوالمناقيش بزعتر.

لما صرنا أنا وأبي وحدنا في البيت، وقبل رحيله هو أيضاً، اكتشفت كم كنا غريبين عن بعضنا، من حواراتنا المقتضبة، من تضارب مواعيدنا، فلا لقاء يحدث بيننا على فطور أو غداء، وفي المساء كان يذهب الى فراشه بعد نشرة الأخبار تماماً. ربما نشرة الأخبار المسائية هي التي كانت تجمعنا فقط، وكان الحوار عن السياسة ينتهي دوما بتعليقه "رح تضل هالبلد خربانة لأنه الكل فيها عامل زعيم" ثم يتوجه إلي قائلاً: "تصبحي على خير ندى".

بعد موتهما، عرفت أي جدار لا مرئي يقوم بيننا، فلا أنا أتمكن من عبوره والتحاور مع أبي ببساطة، ولا هو تمكن يوماً من ذلك. في نهاية كل أسبوع كان يترك لي مصروفي بجانب التلفزيون، كنت أخجل أن أطلب منه المال، جدتي كانت دوماً صلة الوصل بيننا، كما كانت جدتي أيضاً صلة الوصل بيني وبين أمي في سنوات سفرها الأولى، عندما كانت تتصل

بي على الهاتف، كانت تسمح لي بمكالمتها سراً عن أبي، وتطلب مني أن لا أبوح لأحد عن هذا السر، عندما كبرت قليلاً أدركت أن أمـــي كانـــت ترسل لي مبلغاً شهرياً، تحوله باسم جدتي عبر أحد البنوك، من المؤكد أن أبي كان يعرف ويتجاهل، وأن جدتي كانت تعتبر هذا المبلغ أقل ما ينبغي على أمي فعله أمام تخليها عني.

لم يكن أبي ينظر في وجهي مباشرة، كانت عيناه تفـــران كـــي لا يحدق في وجهي وعيني. لا أعرف إن كان يتذكر في ملامحي خذلان أمـــي وهجرها له، أو جنون عمتي الذي ظل يخيفه حتى وفاته.

في الصباح كان يستيقظ في السابعة يتناول فطـــوره في المطـــبخ بشكل سريع، في السابعة والنصف يغلق الباب بهدوء ويمضي إلى عملـــه. كنت أستيقظ في العاشرة، وأبدأ في الاستعداد للـــذهاب الى الجامعـــة، كانت محاضراتي تبدأ في تمام الثانية عشر. يعود هو في الثانية والنصـــف، يتناول غذاءه وينام حتى الخامسة، أصـــل أنـــا إلى البيـــت في الخامســـة والنصف أو السادسة حين يكون هو غادر البيت أو على وشك المغادرة. أحياناً كنت أجد على طاولة المطبخ طبقا فيه عدة قطع من "البفتـــاك"، أو "الكفتة" المقلية بشكل سيئ، أو "فروج مشوي" جاهز،وطبق آخر فيه قطع من البندورة والخيار، وعلبة من الحمص أو الفتة اشتراها من جـــاره الفوال.

كنت في ذاك الحين أجهل كل شيئ عن الطبخ لذا ظلت أطباقنا مختصرة وجافة، إلا من حساء خضار أو أرز مع بعض البازلاء، الطبخـــة

الوحيدة التي أتقنت صنعها، كنت اجتهد أحياناً لصنع بعض وصفات الشيف رمزي التي أسجلها حين يعدها على الشاشة، وما إن أشرع بتنفيذها حتى اكتشف أنها وصفة معقدة، فلا تخرج من تحت يدي متقنة الصنع. لكن مع مرور الوقت وإحساسي المستمر بالطعام الباهت الذي نشتريه من السوق، حاولت تعلم الطهو،أيضا بعد علاقتي مع محمدو ومراقبتي لتفاصيله وللأشياء التي يحتفي بها، وكيف يتعامل مع الغذاء كشيئ أساسي من يومه، كان يقول لي أثناء اعداده الطعام "ليس المهم ما نأكل،المهم كيف نأكل". تغيرت وجهة نظري، وصرت استغرق وقتاً لابأس به في الدخول الى الإنترنت والتعرف على الطعام الصحي، وطرق طهوه المختلفة.

في نهاية الأسبوع، يوم الجمعة، كان أبي يذهب لإحضار عمتي من المستشفى حين تكون في حالة جيدة تسمح لها بالمغادرة، تظل معنا حتى الأثنين صباحاً، ثم يعيدها الى المستشفى قبل ذهابه إلى عمله. في الأيام التي تتحسن فيها حالتها العصبية ويأذن لها الطبيب بالبقاء في المترل كانت ترفض العودة إلى المستشفى، تبكي وتستعطفنا وتقسم أنها لن تقوم بأي عمل يزعجنا، ترجونا أن نتركها معنا لأسبوع أو أكثر، لكن أيا منا لم يكن واثقاً أن إحدى نوبات جنونها لن تظهر في لحظات غيابنا.

أنا وأبي كنا ندرك جيداً أن بقاءها معنا في البيت يعني حتمية وجود أحد منا معها طوال الوقت لمراقبة أي طارئ على سلوكها يؤشر لبدء تدهور الحالة.

البدايات الخفيفة للحالة تكون مع زيادة كلامها عن الحد المعقول ووصوله لثرثرة مضنية، وتذكر تفاصيل قديمة، ثم أرق طوال الليل مع طواف في البيت وبعثرة الأشياء والقيام بتصرفات غير متوقعة، فيما بعد تبدأ القيام بسلوكيات مفاجئة ومخجلة كأن ترتدي ثيابا قصيرة ومكشوفة الصدر، وتضع مكياجاً فاقعاً، وتقوم بحركات خلاعية، أو تقف على الشرفة وتعمد الى مغازلة الشبان الصغار، وحين تتدهور حالتها في نوبات مفاجئة كان رأسها يرتجف في حركات مخيفة تجحظ عيناها، يسود وجهها، ويتدلى لسانها الى الخارج، ثم تبدأ نوبة هيجان عنيفة وتكسير لكل ما تقع عليه يداها، هذه النوبات لم تكن تتوقف إلا مع جلسات العلاج الكهربائي الذي يتركها خائرة القوى لأيام.

أنا وأبي كنا نخاف من هذه الحالات، ونخاف حدوثها حين تكون عمتي معنا، وحدها جدتي كانت المرأة القوية القادرة على الإمساك بزمام الأمور والتصرف بتعقل وحزم، لم تكن تخضع لتأثير عمتي العاطفي عليها عندما تطلب منها البقاء في البيت وعدم العودة للمستشفى، كانت تراقبها عن كثب وتدرك جيداً الوقت المناسب لبقاء ابنتها في البيت.

طوال حياتها سعت جدتي أن تجنبنا جميعاً هذا القلق، كانت تتصرف وحدها، حتى أبي وعمي كان دورهما ثانويا في رحلة مرض عمتي، يكاد دورهما ينحصر في تأمين نفقات المستشفى، وفي إيصال عمتي إليها وأخذها منها، لم يكن أي منهما يذهب لزيارتها في المستشفى، وحين تأتي إلى البيت كان أبي يجلس معها قرابة ربع ساعة، يتحدث معها كما لو

إنها طفلة صغيرة، يبالغ في إظهار عطفه عليها، كان بينهما ما يزيد عن عشرة أعوام، عمي سامح كان يكبرها بخمسة أعوام فقط، وكان يأتي لزيارتنا مرة كل أسبوعين هو وزوجته وأولاده الثلاثة، كانت زيارتهما مختصرة غالباً لا تتجاوز ساعة واحدة، الانسجام كان مفقوداً تماماً بين جدتي وزوجة عمي، ولم تكن أي منهما تتردد في إظهار ذلك أمام الجميع، جدتي تمرر عبارات عن الأصول الوضيعة، وكيف ينتج عنها كل سلوك شائن قاصدة بذلك زوجة عمي التي تنحدر من عائلة ذات سمعة مشبوهة، وزوجة عمي لا تبادر أبداً في إظهار نوايا حسنة بل لا تحرص حتى على إخفاء إنزعاجها من هذه الزيارة. حملت إرث هذه العلاقة المتوترة، وظلت زوجة عمي تتعامل معي ببرود يصل إلى حد الجفاف، كما لو إني "ابنة جديتي" لا حفيدتها. علاقتي مع أولاد عمي أيضاً ظلت محايدة لأنهم يخافون من توبيخ والدتهم لو تواصلوا معي، فقد كانت تواصل تنبيههم أنني بنت أعيش وحدي، وأنهم شباب، فلا يصح التبسط في علاقتهم معي. نشأت بيني وبين حسان ابن عمي الأصغر ألفة ومودة فطرية نتيجة وجود اهتمامات مشتركة، كنا نتبادل سيديهات الأفلام والكتب.

أظن أن عمي حرص على تحديد علاقته بي لأنه كان يخشى أن ألقي بمسؤلية ما على عاتقه. عندما كانت جدتي حية كانت تجبره على المساهمة في نفقات البيت، لذا ظل يحس أن كل من يسكن في هذا البيت يشكل حملاً عليه، هذا بالإضافة إلى رغبته الأكيدة وغير المعلنة أن ينتهي بي المطاف إلى الزواج أو السفر ليضع قبضته على البيت.

بعد موت جدتي، ثم موت أبي، وانتقال مسؤلية عمتي إلي، ظلت العلاقة مع عمي على ذات الوتيرة، إلا أن زياراته لي صارت تتباعد أكثر وأكثر حتى صارت في المناسبات فقط، في عيد الفطر، عيد الأضحى، بعد ليلة رأس السنة الميلادية، هكذا تقلصت لقاءاتي به، فلا أنا كنت أعرف عنه شيئاً، ولا هو يحرص على معرفة أي أمر من شئوني. لم يعرض علي بعد موت أبي القدوم للعيش معهم، لم يقترح علي مجرد اقتراح، بل ارسل لي عبر زوجته أنه كان سيفعل لولا وجود أولاده الثلاثة في المترل، فمن غير اللائق أن أحيا بينهم. وكل ما كان يقوم به نحو عمتي هو الذهاب إلى المستشفى وسداد المصروفات، في بعض الأحيان كان يرسل لي المال مع أحد أولاده ويطلب مني أن أدفع المصاريف لأنه لن يتمكن من الذهاب.

أذكر في إحدى المرات عندما طلب منه أبي أن تبقى عمتي عنده حتى نهاية الاسبوع لأنني أستعد للامتحانات ولأنه سيذهب الى عمله لأن رصيد إجازاته انتهى، بأنه رفض في البداية ثم قبل على مضض تحت إلحاح أبي.

حتى عندما تكون عمتي في حالاتها الطبيعية، كان لها عادات خاصة، من الصعب قبولها بسهولة، كانت تدخن كثيراً، وتترك أعقاب السجائر في أي مكان، وكانت تأكل بلا منطق، وتلتهم الحلوى والشوكولا بشراهة، تنام لساعات طويلة من النهار، وتستيقظ في الليل، هذه التصرفات التي لم نكن نتوقف عندها لا أنا ولا أبي، ولا جدتي عندما كانت حية تجنبا لأية استثارة عصبية من الممكن أن يسببها كلامنا مع

عمتي. لكن الأمر مختلف في بيت عمي، كنا نعرف أنه لن يحتمل شقيقته وما تقوم به، لا هو ولا زوجته، ولا أولاده، كان يحاسبها على أنها إنسان طبيعي وعاقل تماماً، لذا كانت زوجته تنهرها على تناولها الطعام بكثـــرة، أو تسيئ إليها أمام جاراتها.

حدوث مثل هذه الاستثارات العصبية كانت تـــؤدي الى قيامهـــا بسلوكيات أكثر عنفاً، كما فعلت حين رفعت سكين المطبخ على زوجـــة عمي تهددها بالقتل.

في بيت محمدو كنت أغرق بمراقبة تفاصيله، أشياء صغيرة يـزداد شغفي بها كلما رأيته منهمكا فيها، طبق الخضروات الصينية الذي كـان يعده مع النودلز، وصدور الدجاج المنقوعة بالخل والفلفـل الأخضـر، شراب الليكور بطعم الشوكولا، طلبه مني أن أترجم له أغنية فيروز "يارا اللي جدايلها شقر"، قراءتنا معاً من ذات الكتاب، مشاهدتنا فيلم عـبر شاشة الكمبيوتر، رقصنا على أغنية الشاب خالد عايشة وهو يغنيها لي مستبدلا اسم عايشة بأسمي.

كان في علاقتنا تفاصيل كثيرة، جاء شغفي بهـا مـن غرقـي في استقراء رؤيته للحياة، هو الذي يمارس الحياة بسهولة لم أعرفها مطلقـاً، يسافر ويتنقل بين بلد وآخر، مراكماً ثقافات متنوعة في داخله.

موسيقى وأغنيات بوب مارلي التي يشغف بها ولا أحب سماعهـا تصدح في بيته، كان يترجم لي الأغنيات، فيما أنا أقول لـه إن اللحـن يسبب لي التوتر، وإنني لا أحب من أغنياته سوى أغنية:

"No Woman No Cry"

حين قلت له ذلك أمسكني من يدي..

وقفنا قرب جهاز الكمبيوتر، حرك الماوس ثم فتح صورة كـبيرة لبوب مارلي، وفي أسفلها عبارة مكتوبة باللغة الإنكليزية تقول: "كانـت الموسيقى في نظري ولا زالت هي الحرية.. أغني لأشعر أني مازلت علـي

قيد الحياة.. أغني لأعلم الناس كيف يصنعون ثورة وكيف يرفضـــون أن يكونوا عبيداً لبشر مثلهم".

ابتسم له.. أتساءل في داخلي "لماذا جعلني أقـــرأ هـــذه العبـــارة تحديدا؟"

أقول له إنني شاهدت على التلفزيون برنامجاً وثائقيا عـــن حيـــاة بوب مارلي، وكيف عانى اليتم والتشرد في بداية حياته، وفي نهايتها تغلغل السرطان في جسده حتى فتك به.

هكذا لا يظل في حياتنا إلا العناوين العريضة للاحداث، الأيـــام المتتالية المتشابهة تختفي ولا يظل إلا عصارتها.

يبتسم محمدو وأنا أسرد عليه معلوماتي التي يعرفها، نضحك سوياً وهو يقول لي إنني أنفع لتقديم برنامج تلفزيوني عن حياة النجوم لأنـــني أجيد تقديم معلومات قليلة بأسلوب شيق يحرض على المطالبـــة بالمزيـــد. يضع محمدو يده على ذقني، يرفع وجهي إلى أعلى ثم يســـألني إن كنـــت أحب جينيفر لوبيز.

- "كممثلة؟"

قلت له يومها إني أحب تمثيلها فقط، حكيت له عن حبي لفيلمها مع ريتشارد غير.

قال إن من ألطف الأشياء التي يحبها بي احتفاظي بشاشة سينما في عقلي، شاشة تبث باستمرار من دون توقف. قلت له إنني أحب جينفـــر لكنني لا أراها جميلة، إنها تتمتع بجاذبية فقط، أبـــدى محمـــدو إندهاشـــه ليذكرني أنها من ضمن أكثر نساء العالم إثارة. في تلك اللحظات تمامـــاً..

تذكرت بدانتي التي كانت قبل أعوام.. بثور وجهي.. شعر حاجبي الكثيف.. قلت له بحدة ماذا تعني الإثارة؟ تستفزني هذه الكلمة، هل على المرأة المثول إلى الأبد إلى مقاييس محددة مفروضة عليها كي تكون مثيرة، ثم مثيرة لمن وكيف؟ أليس مفهوم الإثارة نسبيا ومتغيرا . يومها كنت أتكلم بانفعال واضح كما لو إنني أحاكمه على مقاييس يفرضها العصر، قال لي إن ما هو مفروض من الخارج ليس من الضروري أن يكون جميلاً، أمسكني من يدي وجلسنا قرب جهاز كمبيوتره، أجرى بحثاً عن صور لنيكول كدمان استعرضناها معاً، ثم سألني عن رأيي، قلت "جميلة". قال لي إنه يراها عادية للغاية.. دمية.. مجرد دمية ملونة بلا حياة.

كانت سيلين ديون تغني.

ذاك المساء بكيت ..ضربت صدره بيدي، بللت دموعي قميصه المفتوح.

مسح على شعري بحنو وهو يقول:

"J e t'aime Nada"

* * *

كلما تذكرت كيف كنت اندفع بشغف للقاء "محمدو" يعاودني ذات التوق للقائه.

مؤسف حين نعي متأخراً قيمة الأشياء. يكون الوقت قد مضى بعصبية وجنون وتركنا وحدنا نكرر بغباء فعل التذكر مجدولاً بندم خفي.

حين نترك لحظات حقيقية تمر من أمامنا ونحن ننظر ببلاهة ونسأل: "أحقا هذه هي الأحاسيس الحقيقية التي يتكلمون عنها؟"

حين يسقط الحب بين أيدينا ويكون شغفاً فلا نصدقه لأننا لا نثق بأنفسنا، ونخاف أكثر مما نحب.

ثم ماذا يبقى لنا؟

مجرد عناوين عريضة للحكاية،

ربما أعي الآن أن كل ذاك الترقب والقلق، كل تلك الخشية، كل التردد، والاحتمالات المفتوحة على كل شيئ وعلى لاشيئ انتهت حتماً.

انتهت لأنني لم أستطع حسم أمري في اختيار أياً منها. فكـــان أن اخترت الوحدة.

الوحدة في بيت لا يسكنه سواي. الوحدة في بلد لـــيس لي فيـــه سوى "عم" لا يذكرني إلا وفق تواريخ الأعياد في الرزنامـــة. و"عمـــة" مريضة تجبرني على التعقل في حالات صحوها كي أُشرف على رعايتـــها، وفي حالات غيبوبتها تطلق أشباحا مرعبة ليهاجموا ليلي.

ماذا انتظر الآن إذن.. إن لم أثق بحكايتي تلك، بكل ما فيها مـــن حسية فطرية واندفاعات مجنونة.

لم اخترت البقاء هنا اذن؟

أعرف أنني لن أتمكن من الفرار ربما لأن ما يربطني بالمكان كـــان أكثر قوة وتجذراً مما يجمعني بالأشخاص.. من هم الأشخاص.. أصدقاء، اتضحت حياهم وصار لكل منهم عالمه. هند ستسافر مع زيـــاد، زيـــن سيعقد خطوبته قريبا، هاديا لن تتردد في الزواج والسفر مع أول عريس ثري.

هل كنت انتظر أن يطل الحب مرة ثانية ليقف ملوحاً أمام نافذتي، أم إنني كما أفعل غالباً سأترك الحياة تسير وفق ركودها المعتاد، وعـــوالمي المنحسرة عن الواقع، المفتوحة على الافتراض.

لماذا أفكر دائماً في علاقتي مع "محمدو"؟

ربما لأنه ساعدني على اكتشاف ذاتي.. ربما.

لقد أدركت مدى فتور علاقتي مع كامل بعد معرفتي بمحمـــدو. كنت أحس نحوه بمزيج من العطف والتأنيب لأنني أتخلى عنه بلا ســـبب محدد، هو أحس بتحولي عنه، وتملصي دائماً من بقائنا على انفراد، لكنه لم يواجهني بأي شيئ، تأخرت المواجهة حتى شهر أيلول بدايـــة التحـــاقي بالجامعة، بعد عودة محمدو وتصاعد علاقتنا.

عندما رجع محمدو من السفر، هاتفني، كنـــت في ذروة الفـــرح، وحين طلب لقائي وافقت فوراً، التقينا في اليوم ذاته عصراً، جلســـنا في مقهى"شاي بالنعناع" قرب الجامعة الأميركية، في ذاك اللقاء كانت المـــرة الأولى التي قبلني على خدي عند مصافحتي، ظل ممسكا بيـــدي طـــوال جلستنا، حكى لي أنه انفصل عن خطيبته، وما يربطه بي لـــيس عـــابرا، الكلام بيننا كان كثيفا، منسابا، عابقا باللذة مثل الرغوة البيضاء في أعلى فنجان الكابتشينو.

كنت موقنة أنني لن أتزوجه، وأن علاقتي به لن تتعدى أكثر مـــن شغف متهور، لكن وجوده كان حدثاً قوياً في حياتي مكنني مـــن قـــراءة أحاسيسي نحو كامل.. كامل الذي تربيت معه وكبرنا سوياً، لزمني حدث

قوي مثل علاقتي مع محمدو ليكشف عما يربطني به، وأن ما توهمته حبـاً ليس إلا علاقة ألفة واعتياد بالنسبة لي..

ربما ساعدني محمدو على اكتشاف جسدي، وعلى تعلم لغة الحواس، وطريق المسامات الدقيقة التي تصل الأحاسيس بالجسد، حين يمسك باطن يدي كان يقول لي "ظاهر اليد حساس للغاية، أما هذه المنطقة، فإن درجة الحساسية فيها أقل كثيراً، لكنني لو وضعت باطن يدي على أعلى كتفك، أو تحت العنق قليلاً، ستحسين بها بعمق أكثر مما لو تلمستك بظاهر يدي".

كان يحكي لي عن اكتشافاته الحسية لخفايا الجسد، وكنت استمع إليه بانبهار، أشياء لم استمع إليها من قبل، ولم يكن من الممكن لكامل أن يحكي عنها أبداً في يوم ما.

ليس بإمكاني نسيان محمدو، فقد كان أول رجل عرفته عن كثب، مازلت أذكره بكثافة، أذكره حين يتلمس عنقي، يضع أصابعه عند وسط الطوق تحت النبض تماماً يهمس في أذني وهو يحرك سبابته بشكل دائري سأسمي هذه الدائرة "ندى الحياة"، تزداد لمساته بطئاً، سواد ليله يغمرني، كما لو إن عينيه تعبران جلدي وتكشفان ما وراء سياج أوردتي، يمر بلسانه على أذني قبل أن يعض أرنبة أنفي ويلتقط شفتي.

مر عام على آخر مرة التقيته فيها بالصدفة. كنت قد أخبرته بقراري إنهاء علاقتنا، لم يلح علي كثيراً، حاول استمالتي، ودفعي للعزوف عن قراري، لكنه لم يضغط علي مما ساعدني على الاستمرار في عدم

رؤيته. ذات صباح حين كنت أسير في شارع "جاندارك"، كنـــت علـــى موعد مع هاديا في كافيه نجار.رأيته على الجانب الآخر من الرصيف،كان يرتدي قميصا ناصع البياض مع بدلة رسمية سوداء تزيد من بروز استقامة قامته، سلم علي وقبلني، أمسك بيدي طويلا، كدت أضـــعف في تلـــك اللحظات، كدت أقول له خذني الآن معك، لكنني تماسكت في محاولـــة لصياغة أسئلة عادية. كنت أرتدي فستانا أبيض. قال لي قبل أن أذهب

"You are so pretty NADA"

ثم ابتعدنا.

كانت آخر جملة قالها لي.

هجرت محمدو بلا أي تبرير أو عذر مقنع بالنسبة له، انقطعـــت عن زيارته، وعن الرد على اتصالاته. حينها كنت أعد الأســـباب الـــتي تمنعني من مواصلة علاقتنا، أكررها على ذاتي اكتبها عبر صفحة بيضـــاء على جهاز كمبيوتري، أدون أسباب هجري له وأعيـــد قراءتها كلمـــا أحسست برغبتي في التراجع، وكلما أحسست بذاك الشغف والهـــذيان الذي كان يقودني إليه كل مرة.

علاقتنا كانت علاقـــة تلامـــس بـــين عـــالمين،مجرد تلامـــس لا أكثر..تلامس بين عالمين وقفت بينهما عدة حواجز ،فلم يـــتم التـــداخل بينهما.

أبيض واسود

اتصلت بالمستشفى صباحاً سألت عن قريبتنا "هنادي" لاطمئن على حالة عمتي "رجاء" قبل أن أذهب لزيارتها. قالوا لي إن "هنادي" لم تـأت هذا اليوم. اتصلت للسؤال عنها في البيت، ردت علي وهـي تصـرخ بصوت عالٍ:

"الله لا يسامحه ولا يوفقه ضربني على عيني ومزرقة ومـا قـدرت اضهر من البيت طلبت اجازة ليومين".

أحس بقشعريرة وأنا أتخيل وجه هنادي الأسمر الغـامق، وعينـها المزرقة من آثار صفعات زوجها التي تتكرر كل عدة أشهر حين تضيق به الحال لتأمين المال لشراء سجائر الحشيش، وتعجز هنادي عـن تزويـده بالمال، وكما لو إنني صرت جدتي فاندفعت لتشكو لي، وأنا أكـرر: "الله بيصبر، معلش شو بدك تعملي علشان الأولاد". هذه هي العبارات الـتي كنت أسمع جدتي تقولها لها في تلك الظروف. امضت هنادي شبابها كله، وجزءاً من كهولتها وهي تعمل في المستشفى، أنجبت ولدين، واسـتمرت في الحياة مع زوج كان في البداية "سكيرا" ثم تدرج نحو إدمانات أخرى، تعرف هنادي عنها بأنها "سيجارة حشيش" وبس.

وأنا صغيرة أذكر أن هنادي كانت تهرب عند جدتي كلما ضربها زوجها، فيما بعد عندما صارت حوادث الضرب تتكرر وبالتالي تتكرر معها مرات الفرار منه إلينا، قالت لها جدتي بلهجتها الحاسمة الجازمة:

"هيك ما بيسوى يا هنادي، هيدا جوزك ابن حرام، يعني أنت عم تطفشي منه باليومين والثلاثة، بكره بلفق عنك شي قصة، وما بيقول إنك عم تجي لعندنا، بيتهمك بشي حدا وبتصير فضيحتك على صنوبر بيروت، كني ببيتك وضبي ولادك وقعدي، واعتبريه هو متل الكلب بالبيت موجود ومش موجود".

من يومها لم يتكرر هروب "هنادي" وإن ظلت تتردد على جدتي للشكوى من مصائب زوجها. كان بينها وبين جدتي اتفاق ضمني على الخدمات المتبادلة، "هنادي" ترعى عمتي في المستشفى وتؤمن لها بعض التسهيلات التي لا يسمح بها لغيرها من المريضات، وجبة إضافية، سجائر زيادة عن الكمية المسموح بها يومياً، وأشياء أخرى.. أما جدتي فكما أظن إنها كانت تمد هنادي بمبالغ مالية قليلة بين حين وآخر.

"كنت بدي اسألك عن عمتي إذا صارت أحسن؟" قاطعتها حين وجدت إن حكايات زوجها لن تنتهي بل صارت تتشعب لتعود إلى تفاصيل الأشهر الماضية.

يعود صوت هنادي طبيعي وهي تتذكر مهنتها كممرضة، وتتذكر أنني أتصل لأسأل عن أمر هي تعرفه، وبالتالي هي مهمة عندي لأنها تساعدني في موقف ما.

"عمتك بعدها تعبانة، يعني وعيت وكل شي، بس مش مركزة، لا ما تروحي وتشوفيها تعبانة قلبك رح يوجعك عليها... يي لـــو تشـــوفي كمان شو ضعفانة، صارت جلدة على عضم، ابقي جيبيلـــها الأســـبوع الجاي معك شوية أكل يغذوها شوي مسكينة ما عاد إلها حـــدا غـــيرك، بكره كله بتلاقيه بطريقك، الله يبيضلك حظك ويستر عليكي ويبعتلـــك ابن الحلال.."

عند هذا الحد كان من الضروري إنهاء الحوار، فقد عرفـــت مـــا يجب معرفته. وصارت عبارات هنادي الأخيرة تسبب لي نفوراً يتصـــاعد بحدة.. تمكنت من الانتهاء من الإصغاء إليها بصعوبة شـــكرتها وأقفلـــت السماعة بسرعة، يغمرني إحساس بالرغبة بالركض بعيداً جداً.

* * *

رن جرس الباب. كانت نجلا، عيناها مشبعتان بالدموع، واصلت البكاء وهي تشكو من عبدو، تقبض على مخدة صغيرة، تضعها في حضنها تشد عليها، وتنهمر في بكاء متواصل، وجمل متقطعة مفاداها: "خلص ما عاد فيي.. زهقت.. مليت من هالعيشة، هو بوادي وأنا بوادي، وكلـــه على جنب وأمي وبيي اللي حسموا القصة إنه ما في تفكير بالطلاق لـــو شو ما صار، عبدو ما في متله بالدنيا، وأنا اللي مش منيحة".

لم أعرف ماذا علي قوله، رددت عبارات تقليدية، ونصائح خائبة عن محاولة التفاهم، لكن يبدو أنها لم تقنع نجلا، مسحت عينيها بعصبية، ثم

وقفت معلنة أنها ستذهب الآن. حاولت أن أستبقيها، لكنها أصرت على المغادرة من دون أن تشرب قهوتها.

فتحت جهاز كمبيوتري، كان بي رغبة لمشاهدة صور أمي في أيام صباها.

ربما لم يكن ذنب أمي أنها أنجبتني وهي في الثامنة عشر من عمرها، كما لم يكن ذنبي.

أتفرج على صورها القديمة عبر جهاز كمبيوتري، الصور الجيدة التي احتفظت بها وأجريت عليها معالجات لتبدو أكثر وضوحاً، صور بعضها بالأسود والأبيض وبعضها ملون. أراها فتاة حلوة تبتسم للحياة. في إحدى الصور هي وأبي متعانقان عند الخصر قرب صخرة الروشة، وفي صورة أخرى ترتدي "ميني جيب" أبيض وتجلس على حافة السور البحري وترفع يدها ملوحة لأحد ما، لمن يا ترى هل لأبي أيضاً؟ في صورة ثالثة يجلسان في أحد المطاعم وأمامهما أطباق طعام كثيرة. تبتسم للكاميرا، وتضع يدها على كتفي وأنا أجلس على كرسي بجوارها أرتدي معطفاً أحمر في حوالي السنتين من عمري. أما هو أبي ففي يده سيجارة، ونظرة عينيه رائقة لكنها لا تتجه مباشرة للكاميرا بل يتجه جزء منها نحونا.

الزمن أكثر قسوة وغموضاً مما نتوقع.

كيف من الممكن لمن يرى هذه الصور أن يخمن أنهما سيفترقان بعد أعوام قليلة؟

جدتي لم تكن تأتي على ذكرها بالسوء كانت تقول:

"كله من الحرب، بعد الحرب، بعد موت جدك وخالك، أمك ما طاقت تبقى ببيروت، وبيك ما رضي يسافر معها، بقيت تبعتلـه كـتير ليروح عندها، هو رفض، طلقها، وما خلاها تاخدك معها".

ظلت أمي بالنسبة لي رغم غيابها مخلوقاً جميلاً، كائناً ضعيفاً وهشاً، حتى خلال انشغالها بعمليات التجميل، كنت أعرف أنها تتمسـك بـأي شيئ يمنحها القوة، لكنها لم تكن قوية أبداً، رغم زواجها من رجل ثري، وإنجابها ولدين، بقيت المرأة الشابة الهاربة وحدها من الحرب.

عمتي في لحظات تعقلها كانت تكذّب كلام جدتي حين تسـمعها تتحدث عن أمي، تتهمها بالأنانية والجشع، وبأنها تركت أبي لتبحث عن زوج آخر ثري، لكن جدتي تقول لها:

"حرام عليكي ماجدة بعمرها ما كانت طماعة، أنتي طول عمرك ما بتحبيها". تغتاظ عمتي وتسكت، أحس أن هناك غيرة خفية لسبب ما لا أعرفه ولا يصرح به أحد.

بعد وفاة جدتي بأقل من عامين مات أبي، مات بالطريقة نفسـها التي ماتت بها جدتي.. توقف قلبه عن العمل.

هكذا كان البيت يتناقص.

ليلتها، هزتني عمتي وأنا نائمة في سريري، قالت:

"تعي شوفي بيك".

كانت السادسة فجراً، وكان بارداً كالثلج.

قبل يومين كان قد عاد من عمله متعباً، مصاباً بانفلونزا حادة، لم ينزل عصراً إلى "المقهى" ليلعب "طاولة"، ولم يشرب في المساء كـؤوس العرق، ظل طريح الفراش لأيام ثلاثة، صار الطبيب يزوره، وتبدو علـى وجهه ملامح غامضة، ربما بدا أكثر غموضاً بالنسبة لي، وهو يسـأل أبي إن كان يتعاطى شيئاً ما، نفى أبي بهزة من رأسه، سألت أنا:

"شي متل شو يا دكتور؟"

لكنه لم يرد، ناولني ورقة مكتوب عليها التحاليل المطلوب إجرائها غداً، أخذ حقيبته وخرج من بيتنا للمرة قبل الأخيرة، وعـاد في المـرة الأخيرة مع عمي ليؤكد لنا حقيقة موت أبي، ويكتب شهادة وفاته بأنها "سكته قلبية" أيضاً.

* * *

بعد موته، صارت تمرض أكثر، نوبات جنونها صارت تتقـارب، موته هزها كثيراً، لم تقو أعصابها الضعيفة على احتمال فقـد أم وأخ في عامين. لم أقرر إعادتها الى المستشفى إلا بعد هروبها من البيت، غـافلتني صباحاً وغادرت رغم أنني كنت أقفل الباب بالمفتاح ليلاً، لكنها انتظرت حتى الصباح وهربت، بحثت عنها أنا وزين لثلاثة أيام متواصلة، سـألت عند بيوت كل الأقارب والأصدقاء والمعارف الـتي خمنـت وجودهـا عندهم، وطاف زين في المستشفيات وفي الحدائق العامة، والأماكن الـتي نتوقع ترددها عليها، وفي بعض الأحيان كان يقود سـيارته عشـوائيا، نطوف في الشوارع الرئيسية والفرعية.

كنت سمعت شذرات من جدتي عن محـــاولات هـــروب عمـــتي المتكررة التي قامت بها في أيام صباها، لم تكن جدتي تتركها وحيدة أبداً، لم تكن تسمح لها الذهاب بمفردها إلى أي مكان. بعد موت جدتي كنا أنـــا وأبي نتبادل حراستها بشكل صامت. لم يكن يزعجني وجودي معهـــا في حالات تعقلها، كانت حنونة علي، خاصة حين لا تكون مريضة. أما مع نوبات المرض حين يرتجف جسدها كله، وتنقلـــب عيناهـــا إلى أعلـــى وتبيضان، حين تبدأ بتكسير الأشياء، أُصاب برعب خانق وأتخيلها تندفع نحوي لتخنقني بهستيرية.

بعد رحيل أبي، حينما صرت مسؤولة عنها وحدي، ربما حاولـــت هي أن تكون طبيعية، أن تظل عاقلة، لكن حتى أدوية الأعصـــاب الـــتي كنت أعطيها لها ثلاث مرات في اليوم لم تكن تنفع لتهدئتـــها. في الليـــل كانت تقوم أحيانا لتطوف في البيت وهي مرتدية ملابس الخروج، تطلب مني أن اصحبها إلى "المنارة "أقول لها:

"الدنيا ليل يا عمتي".

تصرخ في وجهي قائلة:

"إيه وشو يعني.. إذا ليل".

وحده زين الذي عايش معنا قصة مرضها، كان يساعدني علـــى تهدئتها، كان أحيانا يصرخ فيها ويطلب منها الدخول إلى غرفتها والنوم حالاً. كانت تخاف منه رغم إنه لا يكبرني سوى بثلاثة أعوم. كان يمارس عليها سيطرته حتى طلوع الصبح واصطحابها إلى المستشفى.

يوم هربت لم نتمكن من إيجادها حتى نهاية اليوم الثالث، كنت أجلس مع زين في دكان والده حين جاءت إحدى الجارات وقالت إنها شاهدت عمتي في منطقة "بئر حسن".

حين وصلت أنا وزين، تمنيت أن لا تكون عمتي. أن تكون امرأة أخرى، ولكن السواد الذي غطى جلدها، ثيابها الممزقة، شعرها المنكوش، رائحة البول في ثيابها، تجمع الأولاد حولها، شتائمها لهم، صراخهم عليها، خوف بعضهم منها. بالفعل كانت هي.

بنات المنتحرة

يتهاوى جسدي مع نوبات الحساسية التي تتكرر، يحس الجيران بألمي المتدلي من المسامات المفتوحة على الوجع.

تتكرر العبارة ذاتها:

"لازم تبعدي شوي عن الرطوبة، طلعي على الجبل أو البقاع، هونيك الهوا ناشف".

أقرر الذهاب إلى بيت خالي أنيس في البقاع.

* * *

ناريمان ابنة خالي أنيس كانت فتاة أميل للصمت والعزلة على النقيض من أختها ناهد التي تصغرها بعامين، ربما لأن ناهد أقل وعياً بمأساة أمهما. كنت ألتقي بهما في الصيف عند قدوم أمي، نذهب لزيارتهما في "أبلح" حيث سكن خالي وعائلته من أوائل التسعينات.

أول مرة سمعت عن زوجة خالي المنتحرة حدثت حين كنا نلعب أنا وناريمان وناهد مع بنات الجيران، ولما تشاجرت ناهد مع إحداهن صرخت في وجهها الفتاة قائلة:

"إيه روحي أنت من هون، أصلا أنت بنت واحدة كافرة.. ماتت منتحرة".

أعقب الجملة عراك بالأيدي بين الفتاتين، فيما أسرعت ناريمان إلى البيت تبكي.

تزوج خالي أنيس بعد موت زوجته بعامين من إمرأة لطيفة ومستسلمة فاتها قطار الزواج بأعوام كثيرة، لذا كانت تنظر إلى خالي أنيس على أنه هبة من الله، ورغم وداعة زوجة خالي الثانية ولطفها إلا أن الأمر لم يكن خاليا من خلافات عابرة مع ابنتيه، لقد ظلت البنتان تتعاملان معها بشيئ من النفور الواضح. تجاوز خالي بسرعة حكاية زوجته المنتحرة ولم يبق من آثار زوجة خالي الأولى سوى صورة صغيرة بالأبيض والأسود ظلت معلقة في إطار صغير فوق حائط غرفة الجلوس، وكما لو إن خالي يبقي على حضورها في تلك المساحة الصغيرة اعتذراً عما اقترفه في حقها.

ذات مرة قرأت عبارة تقول "كي تكون طبيعياً لابد أن تخلو عائلتك من مجنون ومجرم".

أظن أن جينات الجنون الموجودة عند عمتي، تسكن في داخلي بنسبة من النسب. أما الجريمة فلا أظن ان حادثة انتحار "زوجة خالي" تبعد خالي كثيراً عن كونه مجرم مجهول يعيش بيننا، ورغم ذلك لم استطع كرهه أبداً، بل كنت أحمل له عاطفة ودودة لأنني تأخرت بعض الشيئ في معرفة أصل الحكاية.

يفتخر خالي أنيس بأنه عاش في لبنان أيام العز، يحكي حكاياته الكثيرة عن لياليه في "كازينو فريد الأطرش" في الجبل، وعن معرفته

براقصة مشهورة في ذاك الوقت كانت ترقص أمامه على الطاولة، يحكــي كيف كان يحطم زجاجات الوسكي في حال تجاهل أحد من الجارسونات وجوده ولم يسرع لتلبية طلباته. يحكي عن أسفاره، وعن حياته في مصـــر ومحاولاته الفاشلة في الدخول إلى عالم التمثيل ومشاركته في فيلم عن حياة "بديعة مصابني". لم يكن هناك مبالغة في ما يذكره خالي من مغامرات لأن النتائج التي وصل لها فيما بعد تؤكد ذلك، بل أظن إنه كان يستتر علـــى كثير من الحكايا خجلاً منها.

كان المال الذي ورثه عن أبيه سبباً أساسياً في الحياة العجيبة الـــتي عاشها، وانتهت مثل قصص أفلام الأبيض والأسود التي يحرص صـــناعها على تقديم العظة من خلالها وتمرير فكرة "هكذا تكون العاقبة الوخيمة لمن لا يسلك المسلك القويم". ضاعت ثروة خالي ما بين النساء وطـــاولات القمار، وظلت حياته مستمرة على هذا المنوال حتى ليلة انتحار زوجته.

يحكى سراً بين أفراد عائلة أمي أن زوجة خالي أشعلت النـــار في جسدها بعد أن شاهدته مع أختها في الفراش. كانت أختها متزوجة أيضاً ولديها ولدان وبنت، وكانت زوجة خالي تلاحظ الإيمـــاءات المتبادلـــة بينهما، وتلاحظ إصرار زوجها على وجود أختها في حيـــاتهم، لكنـــها لم تخمن أبداً أن يصل الأمر بينهما إلى زنا المحارم. كيف ضربت أختها عرض الحائط في كل شيئ، متجاوزة علاقتها بها كأخت، ألم تكن تدري أنها تقدم على ذبحها؟ ثم كيف تجاوزت أيضاً وجود زوجها وأطفالها لتدوس بقدميها كل تلك الأشياء وتمضي في علاقة مع رجل محرم عليها؟

كانت شقيقة زوجة خالي تسكن في بيت يجاور بيت أختها لـــذا كان من السهل أن يتواجدا معاً يومياً، وأن يكون حضورها لبيت أختـــها أمراً عادياً. لكن بعد حادثة الانتحار هاجرت شقيقة زوجـــة خـــالي إلى الكويت بعد الحادثة بشهرين برفقة أولادها وزوجها الـــذي لم يصـــدق الحكاية. وصارت تأتي صيفاً لتمضي أشهر الصيف في "أبلح". المســـاحة التي تفصل بين البيتين كانت حديقة صغيرة فيها سور منخفض قام خالي برفعه حتى يحجب تماماً سكان البيت المجاور في حال قدومهم.

في أمسيات الصيف يجلس خالي أنيس في ساحة دار بيته الكبيرة، ويبدأ في غناء مواويل الميجنا والعتابا، تتجمع العائلة كلها حوله، بما فيها خالتي وفاء وأولادها، كان صوته عذبا، على الرغم من أنه لا يردد الموال بشكل متصل بل تتخلله حكاية أو خبرية من أيام وليالي زمـــان. يتمتـــع بحس عال من الظرف والفكاهة، يجعلك تنسى عيوبـــه الأخـــرى، ومـــا تسمعه عن ماضيه الملوث.

الداون تاون

اتصلت بي هند صباحاً، أخبرتني أنها ستعطيني مفتاح بيتها خـــلال سفرها إلى قبرص، كي أسقي شتلات الورد التي تزرعها في الشرفة، وكي أضع ماءً وطعاماً لعصافير الكناري. قلت لهند إنـــني موجـــودة الآن في "أبلح"، وغداً بعد عودتي سآتي إليها مساء.

في صباح اليوم الثاني غادرنا باكراً أنا وأمي وخالتي وفاء وبنـــات خالي ناريمان وناهد. كانت ابنتا خالي ترغبان في الذهاب إلى منطقة وسط بيروت استغربت حين عرفت أنهما لم تشـــاهدا "الـــداون تـــاون" إلا في التلفزيون. كان خالي يفرض على ابنتيه حصاراً مبرمجاً يمنعهما بطريقة غير معلنة عن إبداء أية رغبات للتحرك أبعد من حدود الضيعة. حين عرفت أمي أن البنتين لم تنزلا إلى بيروت منذ كان عمرهما عشرة أعوام، أصرت على نزولهما معنا.

* * *

الأرض مرصوفة بحجارة رمادية غامقة تشبه المدن العتيقة، كـــل شيئ في "الداون تاون" يشبه القديم لكنه ليس قديماً. إنه المكان الذى كان قبل الحرب يزدحم بالأسواق الشعبية والمقاهى تحول إلى أنقـــاض بعـــد اندلاع الحرب الأهلية واستمر كخط تماس يفصل بين بـــيروت الغربيـــة بجزئها "المسلم"، وبيروت الشرقية بجزئها "المسيحي". فى هذا المكان تبرز

مساحة شاسعة كانت تعرف باسم "ساحة الشـــهداء" ظلـــت الأشـــباح تسكنها، ويخيم عليها الموت حتى إعادة إعمار وسط المدينة، وتحولهـــا إلى مركز النشاط التجارى المرتجى لإعادة نهضة بيروت. المتاجر القديمة الـــتي دمرت خلال الحرب قامت مكانها متاجر أنيقة تحمل أسماء ماركات عالمية. قامت بعملية الإعمار هذه شركة "سوليدير" عبر شراء الأراضـــى مـــن الملاك وإعادة إعمارها مع الاحتفاظ ببعض الآثـــار التاريخيـــة لأغـــراض سياحية.

هكذا صار قلب المدينة الذي شهد مقـــبرة جماعيـــة لـــلأرواح والأموال أهم سوق تجارى فى لبنان، مكاناً لا يقصده غير القادرين على شرب فنجان قهوة أو تناول وجبة من دون الالتفات لقائمة الأسعار.

التجول فى "الداون تاون" يكون بالسير علي الأقدام. ركنت أمي السيارة خارجاً، نزلنا جميعاً من السيارة، دلفنا إلى وسط البلـــد. كـــان الوقت أول العصر، صوت فيروز يرتفع من أحد المطاعم المتشابهة الـــتى تضع طاولاتها على الأرصفة وتقدم الأراجيل والبيتزا، وأنواع مختلفة من السلطات، والأيس كريم، والعصائر. ليس ثمة فروق كبيرة بينها ســـوى إعلان البعض عن تخصصه بتقديم الأطباق اللبنانية المحلية،أو أطباق أخرى غربية، كنا نسير ببطئ، مجموعتيين، أمي وخالتي، أنا والبنتين.

نمشي على الرصيف الناعم المتزلق تحت أقدامنا بخفة. طـــاولات المقاهي ممتدة خارج المحلات بدأت تزدحم بالجالسين طاولات متقاربة جداً حد التلاصق. هند كانت تقول إنها لا تشعر بأية متعة في الجلوس مساء في

مقاهي الداون تاون. تصفها بعبارة "ما في شي إلا عجقة ودخان الأراغيل والناس بيتفرجوا على بعضن".

تركت بنات خالتي يكتشفن المكان وحاولت أن التقط الصور لأمي وخالتي وهن واقفتان في ساحة "الداون تاون" الرئيسية قرب الساعة. في الحقيقة لم يكن ما يشغلني أن التقط لهن الصور بقدر ما كنت أفكر في الفروقات الكثيرة بين أمي وأختها،وكيف سارت حياة كل واحدة منهن في اتجاه مختلف، أمي سافرت الى الخليج وتعيش حياة الأثرياء، خالتي وفاء صارت امرأة تعيش رعب العقاب الإلهي، وتحاول باستمرار أن تمرر المواعظ الدينية لكل من تلتقي به. التقط لهن الصور وأتذكر حكاية النساجات الثلاث التي كانت تحكيها لي أم سمير ملخص القصة أن رجلاً عجوزاً لديه ثلاث بنات يعملن في نسج الغزل ويقوم هو ببيعه في السوق، وفي يوم من الأيام حين أحس بدنو أجله استدعى بناته الثلاث وطلب من كل واحدة منهن أن تنزل بنفسها الى السوق لتبيع الغزل، وهكذا تنزل في اليوم الأول الأبنة الكبرى تبيع غزلها وتشتري لهم الطعام وفي نهاية اليوم وهي في طريقها إلى المنزل يلحق بها النجار ويطلب يدها من أبيها، فتتزوجه وترحل معه، ثم تنزل الأبنة الوسطى إلى السوق وتبيع الغزل وتشتري الطعام وتلتقي بالحداد تتزوجه أيضا. تلتقط (أمي ـــ أم سمير)أنفاسها حين تصل إلى حكاية البنت الصغرى التي ستبدأ معها الحبكة الرئيسية في الحكاية، إنها الغزالة الفقيرة التي سيمر من أمامها موكب الأمير.. هي الفتاة الجميلة التي سيبتسم لها الحظ بين أختيها.. وهي المرأة الحزينة التي ستتآمر عليها أميرات القصر ويحرضن ضدها

الساحرات لصنع التعاويذ والأشربة السحرية التي تفسد حياتها الزوجية الهانئة. تستمر قصة عذاب ناسجة الغزل الفقيرة على مدى طويل تتحول فيه إلى يمامة تهدل حول القصر وإلى جانب الأمير المحبوب. كانت تلك القصة من حكايا طفولتي المميزة التي كنت استرجعها في الليالي وأبكي.

المحل الذي يبيع التذكارات اللبنانية يعرض بضاعته على طاولات صغيرة أمام الواجهة، لوحات تمثل آثار بعلبك، طرابيش، وشراويل، ودمى تلبس الزي اللبناني القديم.

نعبر أمام محل لماركة شهيرة تبيع ثياب الرياضة. تناديني أمي تسألني إن كنت أود شراء ثياب للرياضة، أرفض، أحس بالحرج لماذا تصر على معاملتي كطفلة. رغبت أن أقول لها إنه لا فائدة مما تحاول فعله.. كانت تود التعويض عن غيابها بأية وسيلة.

بدأ المكان يزدحم بوجوه مختلفة، وأزياء غير مألوفة في شوارع بيروت الأخرى، إنه خليط من البشر يسترعي الانتباه فى تباينه الواضح. هناك العائلات الخليجية التى تقصد المكان للتبضع، وعند إحساسها بالتعب تلجأ للراحة فى إحدى المقاهي المتشابهة، هناك أيضاً السواح الأجانب الذين سمعوا عن بيروت "قبل وبعد" وجاءوا لرؤية ما سمعوا، ثم فئة قليلة من اللبنانيين معظمهم من الشباب العشريني المرفه يجد فى "الداون تاون" صورة مصغرة لمدينة يبحث فيها عما تحكيه وتصوره الفضائيات وشاشات الكمبيوتر. هذا بالإضافة إلى أماكن التبضع باهظة

الثمن التي لا يمكن أن يكون معنياً بها إلا فئة قليلة من الأثرياء المقيم منهم والسائح. هناك متجر "الفيرجين"، الذى يقصده كل من يبحث عن كتاب جديد أو آخر إسطوانة "سى دى". "الفيرجين" مكان يجسد الثقافة الحديثة بشكلها المتعولم والمرعب أيضاً حيث الإغواء بشراء كل ما تحلم به من الموسيقى الكلاسيك إلى آخر إصدارات دور النشر الغربية مقابل عدم التفكير بالمبلغ المالي المطلوب دفعه.

حين غادرنا "الداون تاون" ذهب الجميع مع أمي إلى بيتها الذي اشتراه لها زوجها منذ أعوام في منطقة "ساقية الجنزير" التي تعد ضمن أغلى المناطق في لبنان على مستوى السكن لقربها من "شارع فاردان" ومن "الروشة" و"الحمرا"،كان بيت أمي واسعا،يطل في زاوية منه على البحر. اعتذرت عن المبيت معهم. أخبرت أمي عن ضرورة ذهابي إلى هند لآخذ منها المفتاح لأنها ستسافر غداً. تركتني أذهب على مضض، كان في عينيها أسف على الأوقات التي تمر وتباعد بيننا. أعرف أن الحوار الحميم مفقود بيني وبينها، هناك شيئ ما مكسور يمنعني من السير إليها او التواصل معها. شيئ لا أعرف كيف أحكي عنه.غادرت لأن زوجها ووالديها سيصلان غدا عصرا،وستكون مشغولة معهم لأيام عدة.

كنت أفضل العودة الى بيتي، حيث أفتح نافذتي على العالم وأراقب ما يحدث. أحسست بالحاجة إلى الهدوء الذي ألفته بعد مرور ثلاثة أيام في صخب عائلة خالي وخالتي.

* * *

الحقيبة الكبيرة التي حزمتها هند كانت مفتوحة في غرفة الجلوس. كانت هند تجمع أشياءها وأشياء زياد، علقت أداعبها بأن عليها أن تعد جهاز عروس لكنها هزت كتفها بحركة تعني أنها لا تعبأ بهذه التفاصيل.

كنت أحس بارهاق وألم عند كتفي ورقبتي بسبب اليوم الطويل الذي بدأ باكراً.

قلت لهند إنني أعاني من تشنج في رقبتي وكتفي، طلبت مني أن استلقي على الصوفا.

قالت :

- دقيقتين وبرجع..

غابت هند ورجعت تحمل في يديها وعائين من الخشب، أحدهما أكبر من الآخر. وضعت على الطاولة الوعاء الأكبر حجماً كان فيه أربعة حجارة سوداء مستديرة، الوعاء الصغير فيه زيت دافئ، قالت لي:

- "استرخي بدي بلش اتدرب على العلاج الطبيعي معك"
- كيف يعني؟
- رح اعملك مساج وبعدين.. مش رح قول هلق بتشوفي.."
- طيب بلشي لنشوف.

بدأت هند تدليك الجزء العلوي من الرقبة الكتفين وأعلى الرأس وهي تشرح لي عن مراكز الأعصاب السبعة الموزعة في الجسم، وكيف أن كل مركز منها مرتبط بالقدم. وبعد أن انتهت من التدليك أحضرت

قطعة كبيرة من القماش الأبيض وغطت بها رقبتي وكتفي ووضعت فوقها الحجارة الأربعة الساخنة، قائلة:

- "هلق بتشوفي كيف رح تحسي بتحسن سريع".

- إيه بس هيدا شو اسمه هند..

- اسمه علاج طبيعي، بدي سافر اتخصص فيه، اكتشفت إني بلاقي حالي بهالشي

- أنا خايفة يا هند يكونوا عم يضحكوا عليكي بهالكلام هيدا..

- بليز ندى ما تقولي هيك بتضايق جد...هيدا علم حقيقي بس مع الوقت ومع وجود الطب الحديث الناس أهملته. بتعرفي كتير من أمراضنا العصرية ممكن تتعالج بطرق بسيطة قائمة على توازن الطاقة، طاقة "الين واليانغ"، يعني الطاقة الموجبة والسالبة، القوية والخفيفة، ندى لو تأملت بحياتنا كلها بالفصول باختيارنا للأكل وفق الطقس بالهوا بالرياح بالشمس بالبحر لعرفتي أنه كل شي له علاقة "بعلم الطاقة" ومهمتنا الحقيقية بالدنيا إننا نفتح الطريق للتوازن الإيجابي، بتعرفي أنا بشوف إنه كل الامراض والسرطانات هيدي اللي عم تقتحم حياتنا جاية من اختلال الطاقة وطغيان إحداهما على الأخرى، وبالتالي تكسير الخلايا، وتراكم النقط السوداء فيها لحد ما تنفجر وتصير أوراماً تدمر أجسامنا".

- يمكن هند يكون الكلام هيدا صح، ما بعرف، أكيد فيه طاقة بالكون، بس ما بعرف إذا تحقيق التوازن اللي عم تحكي عنه رح يأثر فعلاً على انتشار الأمراض والأوبئة والجراثيم، بالنسبة إللي أنا بشوف إنه كل

هالأشيا بتجي من الحروب، من القذائف المتفجرة، من البحر الملوث، من الأكل اللي عم ناكله ونصه كيماويات، من اللحوم المشكوك بسلامتها، من عودة "انفلونزا الطيور" وظهور "الجمرة الخبيثة"، من الاغتيالات والانفجارات اللي عم تعمل حقد وجريمة بعقول الأشخاص، من التزمت والخوف والإرهاب اللي عم يخلق رعب مدمر عند الناس..

– ندى إنتي مش بعيدة عن فكرتي بس أنا عم شوف الأشيا بشكل أعمق، ليه الوصول للحروب وللجرايم وللقتل... من عدم التوازن، من طغيان الطاقة السلبية لأنه الطاقة عند الناس اللي بيعملوا هيك مش متوازنة..

– هند أنت عم تبسطي القصة كتير..

– مش حكاية عم بسطها.. أنا عم بحكي عن فكرة كونية كبيرة.. عن التوازن اللي بيعمل سلام بالعالم كله..

– إنتي كل كم سنة بتطلعيلي باختراع جديد.. بتتذكري لما قلتيللي إنك عشتي حياتيين من قبل، مرة ببغداد، ومرة تانية في أوائل القرن العشرين.. مش عارفة وين..

– أنا جد مش رح خبرك شي بعد.. أيه أنا بعدني مقتنعة إني عشت بزمن سابق، وكنت تلميذة عند طبيب عربي في بغداد علمني الطبابة والحجامة ومت في سن صغير جداً، في العشرين تقريباً، ومقتنعة كمان أنه روحي التانية ظهرت من قرنيين في تركيا وكنت فقيرة كتير وما تزوجت ومت وحيدة، وهلق أنا التجسيد الثالث لهيدي الروح لانه بالمرتين ما حققت

اللي بدي إياه بالدنيا.. كيف بخليكي تصدقي .. لما رحت علـــى تركيـــا السنة الماضية حسيت إني عارفة هالبلد، إني كنت فيها قبل هلق.

– يا اختي أنا في روح واحدة وهلكانة لإني مش عم بفهـــم عليهـــا ولا بتفهم عليي.. يا هند.. تركيا تغيرت أكيد.. واللي كان موجود زمـــان اختفى.

ـــ أيه تغيرت بس روح المكان ما بتتغير.. شوفي ندى الجينات البشـــرية بترحل مع الهوا، مع النبات، مع التراب، وبتنتقل من جيل لجيـــل وأنـــا متأكدة أنه حاملة جينات المكانيين هيدول.. وينك يا ماما أنت بس اللي بتصدقيني..

– أيه أمك بتصدقك لأنها مقتنعة بالتقمص، علشان هيك ما بتستغرب.

ـــ ندى.. العالم من حولنا مش هو بس اللي شايفينه، في أشيا كتير بتحيط فينا وما منشوفها.

دار بيننا هذا الحوار وهند تنقل الحجارة وتمررهـــا علـــى رقـــبتي وكتفي، ثم سألتني:

"كيف صرتي؟"

– أحسن كتير.. ميرسي هند.. يا شافية..

– حلوة كلمتك.. الشافية..

– ايمتى مسافرين بكرة؟

ـــ الساعة عشرة منطير على قبرص.. انتبهي على العصافير مـــا بـــدي وصيكي.. يا ويلك مني إذا صار لهن شي.

"الشغف إن لم يكن مدعوماً بقوة جارفة لا يمكنه مواجهة الخوف وقتله".

كما لو أنني كنت في كهف تظلله البرودة.. الرطوبة.. والعتمة.

مضى علي أيام عدة منذ غادرت البيت آخر مرة.

حين خرجت إلى الشارع غمرني ضوء كثيف.. لم أستطع رفع وجهي نحو الشمس، عيناي تدمعان أرغب بالانسحاب والعودة إلى كهفي، كلما أحسست بالوحدة كلما مضيت أكثر نحو عزلتي.

لماذا كلما واجهت الحياة أجد هذا الكم من العنف والخوف؟

هل صحيح أن "الإرهاب" هو زرع الخوف في نفوس الناس البسيطة؟

لولا خوف نجلا من مواجهة "عبدو" لما قتلها.. لولا خوفها من تحدي المجتمع والجهر بأنها تحب رجلاً آخر ما كانت ماتت..

هل أنا أيضاً من الناس الخائفين.. القابعين في كهوفهم.. أعيش خائفة من الأشباح التي ستأتي إلي ذات يوم وتدفعني للصراخ كالمجانين، فيقرر عمي أن يضعني في المستشفى كما حصل مع عمتي.. سترسل لي أمي المال، وستأتي لزيارتي خلال وجودها في أشهر الصيف، وربما لن تأتي لأن أعصابها الرهيفة لن تحتمل رؤية مريضات المستشفى، كما لن تحتمل

رؤية المسنين الذين يشغلون الطابق الأول، ويخرجون للمشي في الحديقة الخلفية أو الجلوس مع أولادهم في كافيتريا المستشفى.

المعادلة التي تحكم الحياة والموت صعبة وعسيرة التفسير. يفرح الأهل بقدوم مولود لهم، تغمرهم سعادة بالغة وهم يرونه يكبر أمام أعينهم. فيما بعد، بعد سنوات كثيرة سينتظر هذا الابن موتهم ليخففوا عنه مسؤلية كبرهم في السن واحتياجهم له. معادلة غريبة جداً لكنها مستمرة استمرار الحياة، وإن كان البعض لا يواجه نفسه بها إلا أنها قابعة في عمق ذاته.

* * *

ألم أكن خائفة أيضاً حين عرض علي "محمدو" البقاء معا، حين اقترح أن نسافر سوياً، ألم أكن خائفة من مواجهة المجتمع بعلاقتنا..؟

ألم تكن كلمة "هاديا" ترن في أعماقي كجرس منبه إلى ما يمكن أن يقال: "يي رح تتجوزي واحد أسود".

الخوف يدفع لخيانات كبيرة.. أكبرها خيانة الذات.

والشغف.. الشغف إن لم يكن مدعوماً بقوة جارفة لا يمكنه مواجهة الخوف وقتله.

هل كان عبدو من البسطاء الذين مارسوا إرهابهم الخاص فتصدى لتخليها عنه بالقتل؟

لماذا قتلها؟

كيف بإمكاني عبور المبنى من دون تذكر نظرة نجلا الشاردة، وهي تميل ملتصقة بدرابزين الشرفة شعرها الأشقر ونصفها الأعلى النحيل يبين بوضوح..

كيف بإمكاني العبور وصوت "عبدو" يتردد في أذني "منقوشـــتين زعتر.. ثلاثة جبنة، وأربعة لحمة بعجين.. زود يا حسن الحر شوي علـــى فطاير السبانخ تبعون أم خليل.. وطلع دزينة صفيحة بعلبكيـــة علـــى بيت أم لطفي.."

أف.. صوته يرن في رأسي... ودماء نجلا تنساب من الصالون إلى الدرج.. وصوت سكان العمارة يتكرر.."اتصلوا بالدرك يا جماعـــة.. في جريمة قتل هون".

تصل سيارة الدرك..

تذهب سيارة الدرك ..

لم أسأل أحد عن مجرى التحقيق.. لم أسال كيف انتهى، وما هـــو مصير "عبدو".

أحس بشفقة على "عبدو" وبنقمة على صـــورة "هيفـــا وهـــبي" الكبيرة المعلقة عند محل الكاسيت المقابل للمبنى. الصورة التي تحبها نجلا، صورة "هيفا" بالأبيض وهي تضع أصبعها في فمها بحركة مغويـــة، نجـــلا كانت تقلد حركاتها وتقول:

"وحياتك يا ندى فيكي تشوفي هيفا وما تبحلقي فيهـــا... مـــا في حدا ما بيحب هيفا إلا زوجي "عبدو"، بتصدقي بس يشوفني عم اتفـــرج

على هيفا بيقللي قومي حضري العشا وبلا هالمسخرة هيدي وأكل الهوا"..

لا اصدق أن نجلا ماتت.. قتلت.. وأنها لم تعد موجودة في هذا العالم .. وأنني لن أراها من جديد.

* * *

خرجت للقاء د.فواز، أرسل لي أيميل أنه وصل الى لبنان، وإنه سيبقى عدة أيام في بيروت ثم يذهب إلى بيته الثاني في "اهدن" حيث سيعثر لي هناك على كتابات ناهية نصار وبعض أعداد من مجلتها. التقيته في مقهى "ستار بكس" في الحمرا. بدا لي شخصاً رائعاً للغاية رغم سنوات عمره كانت روحه نشطة ومفعمة بالحياة وبعيدة تماماً عن الشيخوخة. سألني عن هند فأخبرته أنها سافرت إلى قبرص لتتم زواجها المدني، فرح جداً بالخبر كما لو أنني أخبره بأمنية خاصة به تحققت، فيما بعد حكى لي أنه أحب في شبابه فتاة من ديانة مختلفة عن ديانته ولم يتزوجها لأنها لم تكن شجاعة،ولم تجرؤ على مواجهة المجتمع كما فعلت هند.

حكيت له أشياء كثيرة.. بقينا معا من الساعة العاشرة صباحاً حتى الثالثة ظهراً، مشينا في شارع الحمرا، سرنا حتى شارع الجامعة الأميركية، ثم تناولنا الغذاء في مطعم صغير يقدم وجبات للطلاب.

أكاد أكون حكيت له كل ما في حياتي.. عن أمي.. عن عمتي، عن محمدو.. عن خوفي من الغد، من الفراغ، من عدم معرفتي بما اتمكن من تحقيقه.

د.فواز كان رائعاً في كل شيئ، في صوته الهادئ وهو يحكي لي عن حبيبته، عن تلاميذه في الجامعة، عن زوجته التي أنجبت له ولدين ورحلت منذ خمسة وعشرين عاماً، عن هوايته بالسفر حول العالم، حيث الرغبة الكامنة في اكتشاف الحياة، قال لي:

"بتعرفي ندى، شو أهم شي بهالدنيا، الأصدقاء لما بيكون عندك أصدقاء حقيقيين بيخففوا كتير حزن بحياتك وبيساعدوكي لتشوفي حالك أوضح، الأصدقاء مرايتنا، أنا لفيت الدنيا كلها بسبب أصدقائي، زرت أحلى بلدان العالم وأغلاها كمان، كان بكل بلد اللي صديق، وما بتصدقي بمبالغ قليلة، كنت استنى لما يكون في عروض على الطيران وسافر، بعد وفاة زوجتي بقي حدي أصدقائي بس، ساعدوني لأتحمل الغربة وكمل الحياة لغاية ما كبروا الولدين وتخرجوا من الجامعة واختاروا طريقهن. العزلة السلبية بتخلينا نشوف إنه مشاكلنا هي بؤرة العالم، بس لما بتسافري وبتشوفي الحياة، لما بيكون قلبك مفتوح إنه تشوفي حضارات تانية ومجتمعات مختلفة بتعرفي كيف ماشية حياتك ولوين....فكري تسافري مع أمك..ليه لا؟ فكري تروحي زيارة ثلاثة اشهر، فكري إنك تصيري معدة برامج وثائقية، بظن هيدا الشي اللي رح تنجحي فيه".

اتفقنا أيضاً على اللقاء في اليوم التالي، ووعدني أن يعطيني كل الصور والمعلومات التي سيجدها في بيته في إهدن، كي أعد تقريراً عن حياة ناهية نصار، اقترح علي د.فواز أن يكون هذا التقرير هو الذي أبادر في تقديمه للفضائية لو طلبوا مني إعداد تصور ما.

* * *

وأنا في السيارة قبل وصولي الى شارع بيتنا، وبعـــد عبـــور جســـر المطار، كان هناك أغنيات للنصر، وشبان يوزعون الحلوى لكل ســـيارة تدخل إلى "الضاحية الجنوبية"، سألت السائق عن السبب، أجابني بلهجة مستنكرة لجهلي "معقول مش عارفة، شباب الحزب كمشـــوا جنـــديين اسرائيليين". هززت رأسي وأنا اتذكر أنني خرجت صباحاً ولم أجلس إلى الكمبيوتر أو التلفزيون، فلم أسمع الأخبار.

بعد ذلك تلاحقت الأحداث بشكل سريع.. سريع جداً.. خـــلال ساعات قليلة فقط.

التهديد بحرب جديدة.

إنذار سكان الضاحية الجنوبية بمغادرة بيوتهم.

كل شيئ كان يدور بسرعة عبثية، ناس تركض، ناس تحمل بعـــض الحاجيات وترحل، غيرهم يؤجلون المغادرة بانتظار ما سيحدث.

كان علي الرحيل أيضاً.

اتصلت بي هاديا قبل أن يغادروا بيتهم، عرضت علي الذهاب معهم إلى بيت أحد أقاربهم في منطقة "البربير"، أخبرتها أنني سأغادر غداً صباحاً إلى بيت خالي في "أبلح".

لا أعرف كيف مضت تلك الليلة. لم أكن خائفة من الأشباح هـــذه المرة. اكتشفت مساء أن المبنى صار خالياً من السكان تماماً.

رأيت الناس عصراً من البرندة تحزم بعض أمتعتها وتسرع بـــالفرار، لكن لم يخطر في بالي أن علي الإسراع بالفرار أيضاً. لم يكـــن هـــذا مـــا يشغلني لأنه كان علي التفكير في المكان الذي سأذهب إليه؟

تتصل أمي بي تقول: "وينك ندى، شو بعدك عم تعملـــي بالبيـــت، خدي أول سيارة وطلعي عندي على الجبل".

وعدهما بمغادرة البيت، رجتني أن أصعد إلى الجبل أو إلى البقاع عند خالي، عادت واتصلت مرة.. مرتين.. ثلاثة.. وفي كل مرة يتكرر بيننـــا ذات الحوار، هي تبكي من الخوف والقلق ومن مفاجآت الحـــرب الـــتي أعادت إلى ذاكرهما أحداث أعوام قديمة وأنا أقول لها إنني سأغادر البيت غداً صباحاً.

وكما لو إنني أكتشف بأني أعيش في بلد عجيب، بلد كأنه جزء من دفتر تلوين مفرغ، وعلى الآخرين أن يضعوا الألوان التي يحبـــون. هـــذا البلد الصغير الذي يحتضن البحر أحد جوانبه، ساعد تشـــكله الجغـــرافي على ترسيخ البقع الملونة وتكريس اختلاف الألوان، يتنوع داخله بـــين جباله العازلة، وبقاعه المنبسطة باتساع يكاد ينفصل عن سواها، الأحراش الغامضة، تجاورها الوديان، وأشجار باسقة ليس هناك نهايـــة لارتفاعهـــا، فيما عاصمة عنيدة هي قلب البلد ونواته، جنته وجحيمه، عاصمة جريئة لم يتغير سكانها منذ نشوء العالم، سكان متعددو الطوائف والانتماءات لا ينصهرون في بوتقة واحدة أبداً، ليظل هناك ما يشير إلى الفروقات بين فئة وأخرى. إنها الفروق التي يصر البشر أنفسهم على وجودها.

الساعة السادسة فجرا.. دوي انفجار عنيف. أقوم بسرعة نحو الشرفة، ليس هناك سوى دخان أسود في السماء وأصوات غربان تنعق بداية الخراب. أسرع إلى التلفزيون، صور متلاحقة لقصف "المطار" وصوت المذيع يتحدث عن تكرار الإنذار لأهالي الضاحية الجنوبية بالمغادرة.

دوي انفجار آخر أكثر عنفاً .. ثم انقطاع في التيار الكهربائي.
أشعل شمعة صغيرة وضعتها بجانبي ليلاً. أقرر المغادرة.

أضع في حقيبة صغيرة بعض الثياب، أقفل جهاز كمبيوتري وأضعه في الحقيبة السوداء الخاصة به، هذه هي الأغراض التي سآخذها معي، غير ذلك سأضعه في حقيبة يدي، بطاقتي الشخصية، ثم كل ما في حوزتي من مال، أقفل أبواب البيت ونوافذه جيداً، أحمل أغراضي وأسرع بالركض على الدرج. كان معتماً جداً ندمت أنني لم أحمل الشمعة معي، كنت أتحسس خطواتي في الظلام، وأحس أن الأشباح ترافقني لكنها لا تخيفني ، يا لها من مفارقة غريبة .. لماذا سكتت الأشباح هذه المرة ولم تعد تأتي لإيقاظي وبث الرعب في قلبي.

أسير باتجاه الشارع، في يدي حقيبة ثيابي، وعلى كتفي كمبيوتري المحمول .. الشارع فارغ تماماً من السيارات والمارة، سوى من بضعة شبان يرتدون تيشيرتات سوداء يتوزعون في الطريق... وآخرون يعبرون بسرعة على الموتسيكلات. عبرت من جانبي سيارتان أو ثلاثة بشكل سريع جداً، ترتفع منها أغنيات عن الحرب والمقاومة.

صوت هاتفي الخليوي يرتفع، أقف على جانب الطريق لأتكلم أمي تصرخ عبر الهاتف بجزع "وينك ندى؟"

"على الطريق ماما.. طلعت من البيت ورح آخد سيارة وأجي لعندك.. ما تخافي".

يباغتني إحساس بأنني مسؤولة عن حالة الخوف التي تنتابها. أطلب منها عدم القلق علي لأني بخير وسأصل اليها بعد وقت قريب.

سائق "فان" يندفع بشكل صاروخي يقف فجأة يسألني عن وجهة سيري، قلت له إنني أريد الوصول إلى المشرفية لأذهب بعدها إلى الجبل أو البقاع، طلبت منه أن يوصلني إلى البقاع، طلب مبلغاً مضاعفًا ثلاث مرات عن السعر في وقت لا حرب فيه، وافقت بسرعة وصعدت إلى المقعد الخلفي. ينطلق بسرعة جنونية، ثم يقف أمام كتل من الدمار.

الجسر الذي كان البارحة معبراً صار اليوم حطاماً. وسوبرماركت "شوبرز" التي كانت تحت الجسر تضج بالحركة والناس صارت كتلة متفحمة من اللون الأسود.

رائحة البارود تغلب رائحة الصباح.

لكن الدمار لا يمنع السائق من الحديث عن النصر الموعود.

أحس بالعطش الشديد.. العطش إحساس بشع أسوأ من الجوع بكثير. أذكر أنني لم أتناول الطعام منذ البارحة عصراً.

نصل إلى المشرفية. جنود من الجيش اللبناني يقفلون الطريق ويشيرون للسيارات بالعودة. يسأل سائق الفان عن السبب، يخبره أحدهم بأن الطريق مقطوع.

أمد يدي إلى حقيبتي، كي اتصل بأمي لأخبرها أن الطريق مقطوع، ولا يمكنني الوصول.

لا أجد الهاتف، أكرر البحث مع تقليب محتويات الحقيبة. لا شيئ.

ضاع هاتفي الخلوي، يبدو أنه سقط مني سهوا. لم اعد أملك الآن طريقة للتواصل معهم.

طلبت من السائق أن يوصلني إلى بيروت،

قال:"لوين يعني ببيروت؟"

قلت: "على شارع حمد" فكرت بالذهاب الى بيت هند، المفتاح معي وسأظل هناك.

خلال الطريق الذي بدا متجهاً نحو المجهول كان هناك سيارات تضم أهالي مهجرين من بيوتهم. وجوه الأطفال يعلوها خوف، وجوه الكبار يمتزج فيها القلق والتساؤل ومحاولات للتظاهر بالقوة.

فجأة خطر في ذهني الذهاب لرؤية عمتي، ساشتري لها السجائر وبعض الأغراض الأخرى، وأترك لها النقود في خزنة المستشفى، لأنني لا أعرف متى سأتمكن من زيارتها مرة أخرى في أجواء الحرب.

حرك السائق الفان بسرعة، وكان يبدو عليه الانزعاج، وأنا أطلب منه تغير وجهة سيري..

عطشي يتزايد.. ما إن اقتربنا من أول الشارع حتى طلبت منه النزول .فكرت كيف سأذهب لزيارة عمتي من دون أن أشتري لها شيئا تأكله. كان علي أيضاً أن اتصل بأمي لأبلغها عن ضياع الهاتف.

توقفت عند سوبرماركت صغير،أجريت الاتصالين بسرعة عبر وضع القطع المعدنية في المكان المخصص لها، كان صاحب المحل يتحدث مع الرجل الآخر الذي معه عن الحرب أيضاً.. قائلاً: "الله ينصرهم للشباب.. هيك بيضوها".

"شو عم تقول يا خيي.. بكرة بتشوف البلد رح تخرب.. معقول أنت.. شو بيضوها".

يرد عليه:

"اذا ما خربت ما بتعمر.. أصلاً هي البلد خربانة.. شو أنت مفكر إنها عمرانة..روح شوف الناس كيف مش لاقية تاكل.. أوعي تكون مغشوش باللي بتشوفه بسوليدير وموليدير.. هيدي المصاري كلها رايحة على كروش الأغنيا".

يرد الأول:

"اذا الناس جوعانة هلق شوي رح تموت جوع بكرة بتشوف.."

تشترك امرأة خمسينية تقف في جانب الدكان قائلة:

"إيه والله بعدنا ما نسينا أيام الحرب والضرب.. لهلق بعده بكل بيت في قصة مرة".

"يا أختي عم قول هيك وعم يقللي إذا ما خربت ما بتعمر... والله يخليهن الشباب".

انتبه إلى أنني صرت طرفاً في الحوار وأنا أقف استمع اليهم، وكلا الرجلين والمرأة ينظر إلي موجهاً الكلام لي، الرجل الثاني الرافض للحرب، يسألني بصيغة افتراضية :

"أنت يا عمو ما عشتي الحرب، مش هيك؟

أستدرك أنه ينبغي علي الإجابة، أهز برأسي موافقة أنني لم أعش الحرب، فيعود إلى الكلام موجهاً حديثه إلى الرجل الأول فيقول:

"شو ذنبه هالجيل خطي.. ليرجع يشوف حرب وقتل ودمار.."

تقول المرأة:

أيه شو ذنبه يرجع يحمل سلاح وبواريد.. ربيناهن بدموع العين.. لوين جاي يا بنتي؟"

تسألني المرأة.

أرفع سبابتي وأشير الى الطريق قائلة "لهون.. مشوار لهون.."

تقلب المرأة شفتها السفلى، تظن أنني لا اريد الإجابة، ثم تنصحني بالعودة إلى البيت سريعاً.

يتوقف الجميع عن الكلام حين يعلن المذياع عن خبر عاجل..

أطلب من صاحب المحل كيسا لأضع فيه مشترياتي، أعطيه المال، يأخذه مني وعيناه عالقتان على الشاشة، يعطيني ما تبقى من المال ثم يقول لي وأنا ابتعد: "الله معك يا عمو.. توصلي بالسلامة"

ابتسم بصعوبة ..

في الشارع الأجواء متشابهة، أغاني المقاومة مارسيل خليفة، جوليا، ماجدة الرومي، وغيرهم ترتفع من المذياع، كلها أغـــاني عـــن المقاومـــة والرفض، والموت وقوفاً. أما المحلات التي أصر اصحابها علـــى مواجهـــة الحياة والعمل بشكل شبه عادي تجد فيها تجمعاً لعدد من الأشخاص مـــا بين زبائن وجيران.

أدخل إلى المستشفى، أشم ذات الرائحة القديمة، يعاودني إحساس التقيؤ.. أحس بطيف جدتي يمسك يدي الصغيرة وهي تصطحبني معها إلى هنا.. بنت في السادسة وامرأة تجاوزت الخمسين.

صديقات عمتي المريضات يلوحن لي من الشباك المســـور بمربـــع حديدي فيه فتحات صغيرة تشبه فتحات شبابيك السجون، ينادين علي كما لو أنني صديقتهن "ندى..ندى.."، ثم ترتفع أصوات مرعبة، أصوات تزلزل بصراخها المكان.

داخلي يرتجف، لا.. لا.. يداي أيضاً، قدماي عند أعلى الفخـــذ تميدان بي، وأحس بهما واهنتان ورقيقتان كقلم رصـــاص، انقبـــاض مـــا يعتصر أمعائي..

أشد قبضة يدي على كيس المشتروات للحفاظ علـــى تـــوازني، اكتشف أنني نسيت حقيبة ثيابي في الدكان ولا يوجد معي الا كمبيوتري أحمله على كتفي، إذن علي العودة لإحضارها بعد مغـــادرة المستشـــفى، أرى عروق يدي تنفر وتتمدد إلى خارج جلـــدي، أصـــابعي منتفخـــة ومتعرقة، لونها قاتم وكما لو إن دمائي اختلطت بلون بترولي غامق فصار

لونها غريباً. لا أعرف كيف يكون لون الدم حين يمتزج بـألوان أخـرى تؤثر على لونه الأصلي فتلغيه تماماً.

أصعد باتجاه الدرج، أعبر الطابق الأول، ثم الثاني.

أقف أمام الباب الكبير، الباب الذي يصيبني ما وراءه بـالجزع. أكبس بسبابتي على الجرس، أضم يدي وأضرب أيضـاً علـى البـاب ضربتين، وجهي شديد الصفرة، لا احتاج مرآة لتؤكد لي ذلك، أعـرف أن الدماء كلها تتحرك بين قلبي ويدي فقط، فيما سائر أعضـائي جافـة تماماً.

ينفتح الباب. إنها ذات الممرضة المرعبة التي رأيتها آخر مرة، حين أتيت برفقة حسان ابن عمي. أرى وجهها شديد السواد، أعـرف أنهـا ستقول لي لا توجد زيارات اليوم، وأن علي ترك الأغراض عندها والمال في خزنة المستشفى، لذا أبادرها بأن أمد يدي بالكيس في تهيؤ تام لأنـزل الدرج مبتعدة بسرعة، لكنها تمسكني من يدي، تشد على اليد التي تمسك الكيس وتضع يدها الأخرى على كتفي. تسحبني الى الداخل مـن دون كلام. نقف أنا وهي في الصالون الواسع الذي تجلـس فيـه المريضـات ليشاهدن التلفزيون مساء. المكان هادئ تماماً، وخالٍ سوى مـن بعـض الأصوات التي ترتفع من الحجرات. ما هذا الهدوء المرعب، مـن أيـن انبعثت الأصوات التي كنت أسمعها وأنا في الأسفل إذن؟ ثم أيـن هـن المريضات اللواتي كن يلوحن لي من نافذة الشباك الـتي تشـبه نافـذة السجن، أين هي عمتي أيضاً؟

تشير على الممرضة للسير ورائها في الممر الطويل، يبـــدو لي أن لا نهاية له.

في زيها الأبيض المخيف تسير أمامي، قدميها تبـــدوان شـــديدتي السواد عند نهاية حافة المريول. صندلها الأبيض أيضاً ذو الكعب الضخم يبدو لي بشعاً أيضاً.

تتركني وجها لوجه أمام باب خشبي فيه مربعات مـــن الزجـــاج السميك الذي يبدو ما خلفه مجرد أشباح متحركة، على الحـــائط قـــرب الباب يافطة صغيرة مكتوب عليها "رئيسة قسم التمـــريض". تتجـــاوزني الممرضة، تفتح الباب وتدخل بسرعة، تتركني خارجاً، تضـــم أصـــابعها الخمسة في شكل هرم فتبدو لي رؤوس أصابعها مثل مخالب حيوان مفترس وهي تحركها لتشير لي بالانتظار.

دقيقة من الوقت مرت ببطئ كنت أحس بأجزاء الثانية وهي تعبر حدود زمني الثقيل.

تخرج الممرضة، تعبر من أمامي وهي تمـــنحني ابتســـامة تعـــاطف صفراء ثم تبتعد عبر الممر الطويل.

وقفت وجها لوجه أمام رئيسة الممرضات التي تجلس على كرسيها الواسع، كانت امرأة سمينة وقصيرة، مربعة الجسد، وجهها كبير أيضـــاً، عظمتا خدها بارزتان رغم كتل اللحم التي تغطيهما، عيناها تضيقان تحت ثقل جفنيها السميكين، وقفت فبان لي كتفها وصدرها كتلـــة واحـــدة. ملامحها كلها جامدة من الصعب التنبه الى ما تود قوله.

ثم ..

ماذا كانت تقول..؟

لا أذكر تماماً.

عبارات.. عبارات.. لا هوية لها.

عبارات تفيد حقيقة واحدة .. " ماتت".. عمتي ماتت

كررتُ الجملة.. وأيضاً كررتُ عبارات لا تجدي، الأسئلة التي ترافق حدث الموت، كيف ومتى؟ أين؟ لم؟

"اتصلنا بعمك، وخبرناه علشان تشوفوا موضوع الدفن كيف بده يتم، نحنا مفكرين إنك عارفة، وجاية تردي علينا خبر، هي توفت اليوم عند الفجر.. البقاء لله.. ربنا ريحها وريحكن.. ربنا خفف عنكن وعنها".

لم تكن تتحدث بتعاطف معي، كانت كمن ينقل لي خبراً مريحاً. كانت تراني لحظتها مثل الأبناء الذين يضعون أهاليهم في دار المسنين وحين يعرفون بموتهم، يعتبرون أن الموت جاء رحمة لكليهما، فيفرحون فرحاً سرياً يخجلون من إظهاره.

يدي متيبسة على الكيس المليئ بالمشتريات. تتراخى يدي عنه، يسقط على الأرض، أسمع صوت ارتطام عنيف، يتزامن مع دوي انفجار بعيد. يبدو على الممرضة التململ وأنا أحملق بها وبالمكتب الذي تجلس عليه.

عمتي ماتت إذن.. علي مغادرة هذا المكان بسرعة.. علي مغادرته إلى الأبد.

أقف.. أتحرك خطوتين نحو الباب. برودة عنيفة، ثلج يمـــلأ أوردتي وأعضائي كلها.

صوت الممرضة يأتيني من الخلف قائلة "لــوين...لازم تســتلمي غراض عمتك، وتضلي هون ليجي عمك ويتمم إجراءات الدفن".

صوت القذائف تتوالى خارج المستشفى، رائحة البارود تتســرب عبر الشباك المغلق.

ينفتح باب الغرفة بسرعة، أجد الممرضة الأولى أمــامي، التفــت برأسي إلى الوراء نحو رئيسة الممرضات، تشير إليها باصطحابي، أمشـــي خلفها، خطواتي متكسرة، قدماي تتضــخمان، الآن لا يوجــد في كــل جسدي سوى قدمين تسيران في ممر المستشفى الطويل.

نصل إلى الصالون الذي تجلس فيه المريضات، تشير علي الممرضة بالجلوس، أجلس في المقعد الذي رأيت عمتي تجلس فيه. تنظر إلي الممرضة فلا أرى سوى عينيها اللتين تشبهان عيون مصاصي الدماء، تندفع مــن فمها عبارة مفادها أن علي الانتظار ريثما تعــود. تبتعــد هــي، تبــدأ المريضات بالصحو، يدخلن إلى الصالون الواسع، أحــس بهلــع كــبير، انكمش على ذاتي، أفكر بالهرب عبر الباب الذي دخلت منــه، أحــرك قبضته، الباب مقفل، قهقهة كبيرة ترتفع من مكان ما، أعود لأجلس على المقعد الشاغر الذي تركته، مكان عمتي. انتظر قدوم الممرضة.. استند إلى ذراع المقعد، أشد كلتا يدي على معدتي، اعتصار حاد يمــزقني، ورغبــة عالية في الصراخ.. صراخ حاد جداً مرتفع ينطلق مني، صراخ يتحول إلى زعيق، أقع على الأرض.

آخر ما أذكره صوت قذائف يتتالى انفجارها.. رائحة بــارود.. دخان أرى أخيلته ترتفع من مكان ما. روح عمتي تتحــرك في الغرفــة، أشباحها حولي تماماً، بينها شبح كبير جداً، هائل الحجم، رمادي اللــون، يقترب مني مقهقها، أسمع ذات الصوت الذي كان يصدر من عمتي لحظة مرضها، دوار عنيف في رأسي..

صوت القذائف يتتالى.. الممرضة البنية اللون تعود إلى الغرفة معها ممرضة أخرى، يمسكانني من كتفي، يدفعانني للوقوف. للسير إلى الداخل، العودة الى الممر،إلى ظلاله الرمادية.

أسير معهما ببطئ.

أصوات القذائف تتسارع أكثر.

قلبي ينبض وينبسط في نبض سريع، جسدي يصير مجــرد قلــب الآن، ووجه فيه حدقتان متسعتان بهلع، قدماي تتضــائلان، تميــدان بي، غصة عند حلقي، قيئ يندفع من معدتي الفارغة، إعصار يدور في أمعــائي و.. و.. و.. والحرب..

إلى متى ستستمر الحرب؟

وأنا.. أنا.. ماذا أفعل هنا؟

إنتهت